تاريخ ثورة موريسكيي مملكة غرناطة وعقابهم

الكتاب السادس

الفصل الأول

يتناول قيام كل من ألبارو فلوريس وأنطونيو دى أبيلا بنهب بلدة بالور، فى أعقاب استسلام بقاع البشرات، وكيف تم اعتقالهما مع من كان بصحبتهما من الرجال.

كان ماركيز مونديخار يسعى بشتى السبل الممكنة لإنهاء مسألة إخضاع الأراضى، واعتقال أو قتل ابن أمية والصغير. فى أعقاب فشل غاسبار مالدونادو فى القيام بتلك المهمة، عيّن القائد جواسيس لتقصى أمرهما، خاصةً من بين بنى ثابا Aben Zabas الذين كانوا يقطنون بالور، وكانوا أعداءً لهم(*). بينما هو يولى ذاك الأمر كل تلك العناية، تم إبلاغه بترددهما فى بعض الليالى على ذاك الموضع ، وكيف أن ابن أمية لابد له من حضور حفل عرس سوف يقام فى دار أبيه؛ و سيمسى ممكنًا اعتقاله بسهولة، إذا ما باغته بالفعل أربعون أو خمسون رجلاً على نحو مفاجئ؛ لأنه لا يصحبه سوى عدد قليل من الرجال، فأمر باستدعاء كل من خيرونيمو دى تابيا Jerónimo de Tapia وأندريس كاماتشو Andrés Camacho – وهما من قادة مجموعات مكافحة التلصص– وكليهما متمرس فى شئون الصيد وخبير بتلك الأراضى؛ فعهد إليهما بتلك المهمة، ليضطلعا بها فى جد واجتهاد، مع أربعين جنديًا يقومان باختيارهم من كتيبتيهما.

انطلق القائدان من أورخيبا فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس، ووصلا ليلاً إلى بالور العليا Válor el alto ، فتركا الرجال كامنين بين بعض الشجيرات واقتربا

(*) انظر الكتاب الخامس، الفصل الرابع والثلاثين، ص١٣٨. (المترجمة)

بمفردهما من المنازل. فلمّا ألفيا الأبواب مفتوحة، دلفا إلى الداخل وأضاءا الأنوار؛ ثم جابا جميع الغرف، فلم يعثرا على أى أفراد أو دلالات تشير إلى أن المكان كان عامراً منذ وقت بعيد؛ فخرجا منه، وذهبا إلى المحل الذى تركا به الجنود. فسمعا خلال الطريق ضجيجاً فى بالور السفلى **Válor el bajo**، وأحسا بصرير السلاح؛ وبينما هما ينصتان السمع، إذا بهما يبصران خروج رجل مسلم من أحد المنازل، وهو يحمل رحالين صغيرين مملوئين. انتظره القائدان فى أحد الممرات الكائنة بالطريق، ثم خرجا إليه واعتقلاه حتى يعرفا من أولئك الناس الذين يطلقون المنجنيق. فأخبرهما الرجل أن ابن أمية موجود فى البلدة، داخل بيت موريسكى من أصدقائه، يعزف أنغام العرس؛ وبرفقته العديد من القواسين والرماة من الثوار الجبليين، والجند المسلمين، وغيرهم ممن ذهبوا للانضمام إليه فى أعقاب الإغارة على لاروليس. رجع القائدان بعد تلقيهما لتلك الأنباء، لأنهما لم يجرؤا على اقتحام القرية فى ظل عدد الرجال القليل الذى يرافقهما، لكونها عامرة بالأهالى، حيث احتشد بها من استسلموا فى بالور العليا وغيرها من البلدان. إبان وصولهما إلى أورخيبا، أخبرا ماركيز مونديخار بكل ما قصه المسلم عليهما. وعندما سألهما الماركيز عن عدد الرجال الكافى لمحاصرة المكان وتنفيذ المهمة المرجوة، ردا عليه بأن أربعمائة رجل سيكون عدداً كافياً لتحقيق ذلك.

فى تلك الليلة عاد ألبارو فلوريس من الخارج، فأمره الماركيز أن يتوجه إلى بالور السفلى برفقة القائد أنطونيو دى أبيلا **Antonio de Ávila** –وهو من مواطنى مدريد–، وأن يصطحبا معهما القائدين، وستمائة قواس منتقين من جميع الكتائب. فيحيط الجمع بالمكان ليلاً دون أن يشعر بهم أحد، ثم ينذروا أياً من بنى ثابا لكى يرشدهم إلى المنازل التى من الممكن أن يوجد بها ابن أمية؛ فيحاصروها فى آن واحد، ويسعوا إلى اعتقاله أو قتله. وإذا لم يعثروا عليه، فليستعلموا عن وجوده هناك فى تلك الأيام، والموضع الذى يحتمى به. وقد علمنا أيضاً أن الماركيز أمر ألبارو فلوريس بمطالبة نواب مجلس البلدة بتسليمه الموريسكيات المملوكات لصاحب الجلالة، اللواتى كان قد أودعهن لديه فى خوبيليس؛ وأن يحملهن إلى أورخيبا، حيث تجتمع باقى النسوة.

فى أعقاب تلقى ذاك الأمر، غادر القادة المعسكر فى يوم الأربعاء، الموافق الثلاثين من شهر مارس. وأثناء عبورهم الجسر المجاور لبلدة البسيط قاموا باستعراض الجيش، فألفوا فى حوزتهم ستمائة وخمسين رجلاً؛ بالإضافة إلى من تبعوهم لاحقًا دون أن تصدر إليهم الأوامر بذلك، ظنًا منهم أنهم متوجهون للقيام بغارة كبيرة؛ أو بعض المغامرين الذين يحملون كميات من النقود، ويرغبون فى توظيفها فى شراء إماء وثياب وحلى. لأنه فى الحملات العسكرية الشبيهة بتلك، دائمًا ما يغتنم الجنود الفرصة، سواء كانوا يخوضون الحرب بإخلاص أم لا. وحينما يعثرون -بعد انتهاء المعركة- على من يشترون منه تلك الأشياء، فإنه يبيعهم إياها بثمن بخس. احتشد لديهم ما يقرب من ثمانمائة رجل، وساروا طيلة ذاك اليوم باتجاه البحر، مخلّفين بالور على الجانب الأيسر لتضليل الجواسيس.

فى اليوم التالى، عثروا على أربعين جنديًا فى معقل مطريل؛ وكانوا بإحدى الجادات، غافلين للغاية عن مهامهم، وينتظرون مجىء رفاق آخرين ليتوجهوا معًا لنهب إحدى القرى. فاصطحبوهم معهم، واستكملوا مسيرتهم، وأخذوا يلفون ويدورون من موضع إلى آخر. فى الصباح الباكر من يوم الجمعة، شاهدوا خمسين جنديًا يهبطون إحدى الروابى وهم يلوذون بالفرار، وكان يلاحقهم الكثير من المسلمين الذين يطلقون صيحات الحرب. كان أولئك من أدرا، وكانوا قد خرجوا معًا فى جمع يربو على المائة؛ فقسّموا أنفسهم إلى كتيبتين، من أجل نهب قريتى موررتاس وتورونّ فى آن واحد. فى تورونّ، دافع المسلمون عن أنفسهم، وقتلوا منهم أحد عشر رجلاً. وفى موررتاس، قضى المسيحيون ليلتهم فى الكنيسة، وقدم لهم الأهالى وجبة العشاء، وكذا الغذاء فى اليوم التالى. وعند رحيلهم، قاموا بسرقة المنازل فى مقابل استضافتهم لهم[1]؛ ثم بادروا بالهرب محملين بالغنائم. فخرج المسلمون يقتفون أثرهم وهم يصيحون، وكانوا سيذبحونهم جميعًا لو لم يتصادف وصول رجالنا إليهم. قام القادة بضمهم إلى

---

(١) هكذا يسخر مارمول من تصرفات بعض الجنود المسيحيين ممن لم يلتزموا بتعليمات قادتهم. (المراجع)

صفوفهم كما فعلوا بالآخرين، وتوجه الجمع صوب بالور بعد أن قاموا بدورة كبيرة في الطريق. وصل القادة إلى هناك ليلة السبت الموافق الثاني من شهر إبريل، وقبل أن يدخلوا إلى البلدة قسّموا الرجال إلى فريقين لكي يتمكنوا من محاصرة الموضع كله في آن واحد.

احتل كل من أنطونيو دي أبيلا وخيرونيمو دي تابيا سفح الجبل عن طريق سبيل للرعاة يفضي مباشرةً إلى المنازل، بينما عبر كل من ألبارو فلوريس وكاماتشو هوة كان لابد لهم من المرور بها لاحتلال المنطقة المرتفعة الكائنة ناحية الجبل. كان يتعين على الجميع الوصول في نفس الوقت. لمّا كان الطريق الذي سلكه ألبارو فلوريس أطول وأكثر صعوبة -نظرًا لكبر المنخفض وعمقه- فقد سبقه أنطونيو دي أبيلا في الوصول إلى موقعه. كان المسلمون قد أقاموا نقطة الحراسة الخاصة بهم في الطريق إلى جانب أحد الصلبان، خوفًا من الجنود الذين يجوبون الأراضي ويحدثون الأضرار. فتقدم إليهم خيرونيمو دي تابيا، وأمرهم ألا يشيعوا الفوضى، لأن من أتوا لزيارة تلك الأراضي هم جنود ألبارو فلوريس. حينما تعرف عليه أحد أفراد بني ثابا الذي كان معهم، توجه إليه واحتضنه، وتوسل إليه أن يشغل الرجال حتى يذهب هو لمقابلة ألبارو فلوريس، لأنه يعلم ما سيقدمون عليه. في أثناء صعود ابن ثابا من المنخفض، عند المنطقة الواقعة خارج نطاق المنازل، بحثًا عن ألبارو فلوريس، ناداه باسمه؛ وأشهر في يده صك الأمان الذي منحه إياه ماركيز مونديخار. لمّا كانت الليلة مقمرة، وقد ظهر شبحه من بعيد، أطلق عليه أحد الجنود عيارًا ناريًا، فلم يخطئه، وأرداه قتيلاً على الأرض. شرع المسلمون الذين كانوا برفقته في الصراخ، وأشهر المسيحيون أسلحتهم. أغار جنود أنطونيو دي أبيلا على الرجال الذين يقومون بالحراسة عند الصليب، ودخل هؤلاء وأولئك إلى البلدة أفواجًا؛ فقتلوا كل من مر أمامهم من المسلمين، ونهبوا المنازل، وأسروا النساء، وقاموا بتجميع المغانم في الكنيسة، كما لو كانوا قد قدموا عمدًا من أجل الاضطلاع بتلك المهمة.

لم يكن الفجر قد لاح كليًا حينما شرع المسلمون -الذين استطاعوا الفرار من الجنود- فى إصدار إشارات دخانية فى البلدة. فأخبر خيرونيمو دى تابيا وكاماتشو القادة، انطلاقًا من كونهما رجلين متمرسين، أنهما ينصحاهم بترك الفىء والعودة قبل فوات الأوان؛ لأن أمامهم ثمانية فراسخ من الطريق الوعر والمنحدر حتى يبلغوا أورخيبا. وأنه إذا ما أغار الأعداء عليهم، فإنهم سيواجهون خطر الهلاك. أراد ألبارو فلوريس الأخذ بنصحهما، بيد أن أنطونيو دى أبيلا سخر منه؛ قائلاً إن بإمكانه عبور إفريقية بأسرها مع من فى حوزته من الرجال، ومحملاً بمغانم تفوق تلك التى ظفروا بها. اتفق سائر الجنود والمغامرين على ذلك الرأى الذى لا يقل فى الجشع عنه فى العجرفة؛ فأخرجوا المسلمات من الكنيسة بعد أن ارتفعت الشمس فى السماء، وشكّلوا سريتين: احتل ألبارو فلوريس الطليعة مع إحداها، وبقت الأخرى فى المؤخرة تحت إمرة أنطونيو دى أبيلا. كما تم إيداع المسلمات -اللواتى تجاوز عددهن ألفًا ومائتى نفس- فى المنتصف، مع بعض الرماة على كلا الجانبين. أثناء مسيرة هؤلاء وأولئك، توقف أنطونيو دى أبيلا مع مائتين وخمسين جنديًا إلى جوار المنازل، تحسبًا لهجوم الأعداء -الذين أخذوا فى القدوم عبر تلك السفوح وهم يطلقون صيحات الحرب- على الرجال، خلال نزولهم من إحدى الروابى، التى كان يتعين عليهم عبورها للوصول إلى الطريق الأصلى.

فى تلك الأونة، أدرك المسلمون -الذين جُرِدوا من نسائهم وبنيهم وممتلكاتهم- أن ما قام به الجنود مخالف للأوامر، فبعثوا برجلين فى بادئ الأمر، ليخبرا القادة بأن ينتبهوا إلى صكوك الأمان التى كان ماركيز مونديخار قد منحهم إياها، وإلى كونهم خاضعين، وإنه لا يوجد داع لإلحاق كل تلك الأضرار بهم. وإذا كان ما جرى هو مخالفة من قبل بعض الجنود، فقد حدث ما حدث؛ وعليهم أن يتركوا لهم نساءهم وأولادهم، لأنهم يرغبون فى أن يسود ديارهم السلام والطمأنينة. وإذا لم يتم ذلك، فإنهم سيُشهِدون الرب على تلك الوقائع. أجاب أنطونيو دى أبيلا الرجلين بكلمات مهينة، ونعتهما بالكلبين الخائنين للرب والملك، وأنهما أويا الطاغية فى بيوتهما، وحذراه لكى يرحل عند قدوم المسيحيين؛ ثم أمر بإعدامهما رميًا بالرصاص.

حينما شهد المسلمون ذاك الأمر، هب منهم ما يقارب الخمسمائة رجل -كان غالبيتهم من العزل- لمباغتة الجنود المائتين والخمسين أثناء نزولهم من الهضبة المفضية إلى السفح. فهاجموهم كما يفعل الرجال الآيسين، وهزموهم، وقتلوا أنطونيو دى أبيلا وما يزيد على ثلاثين من جنده؛ بينما لاذ المسيحيون الآخرون بالفرار فى خسةٍ صوب السرية. أمسى كل الخاضعين فى حالة من الهياج، نظراً للأضرار التى باتوا يتعرضون لها على يد الجنود العصاة منذ اقتحامهم لاروليس. حينما سرت أنباء ما اقترفه المسيحيون فى بالور فى بلدان الجوار، وكيف أنهم أسروا سائر النساء الموريسكيات، لم يتهاون المسلمون فى تلبية الإشارات الدخانية؛ وصاروا يجدّون فى طلبهم كلما تراءى لهم موضع أفضل للانقضاض على الجنود المضطربين، الذين افتقروا إلى النصح، والنظام، والحمية فى آن واحد. فبات المسلمون يظهرون للجنود - أثناء سيرهم-عبر الممرات وسبل الرعاة التى كان لهم دراية بها، ليجرحوهم أو يقتلوهم دون أن يصيبهم هم مكروه. قام فوج من المسلمين باختراق السرايا عند موضع النساء فى المنتصف، فقتلوا ما يربو على خمسين جندياً، واستولوا منهم على أكثر من ثلاثمائة امرأة، واصطحبوهن معهم. فى أعقاب هؤلاء، باغت الركب آخرون، وآخرون غيرهم، حتى لم يبقوا على أى من النساء؛ وكان رجالنا يقاتلون بتكاسل شديد، فبدا وكأن السماء قد صبت جام غضبها على أولئك الجنود الجشعين[٢].

حث من بالمقدمة الخطى، حتى وصلوا إلى ممر ضيق يقع بين جبلين. وكان لابد لهم من عبوره بطريقة غير منتظمة، فتخلوا عن السير على السلاسل الجبلية العالية - كدأب الرجال المنضبطين- ليسلكوا وادياً ضيقاً وعميقاً، حيث كانوا بالكاد يستطيعون المرور متراصين. حينما أسرع من فى طليعة الركب فى المسير، للخروج من ذاك المعبر السيء، وتركوا من بالمؤخرة يجابهون الأخطار، شكّل الجنود صفاً طويلاً للغاية، مما أتاح للمسلمين فرصة قطع الطريق عليهم. فانقضوا عليهم من جهات عديدة، وسرقوا ما تبقى معهم، وأجهزوا على القائد أرييتا Arrieta، الذى تصدى لهم فى استبسال

(٢) مرة أخرى ينتقد مارمول جشع المتطوعين المسيحيين فى الحرب. (المراجع)

لفترة طويلة، وشن بعض الهجمات على الأعداء. بينما الناس آخذون فى الانتشار، كان كل من القائد ألبارو فلوريس وكاماتشو يعملان قدر الإمكان لمنع الجنود من الهرب. حينما أدركا أن مجهوداتهما ليست ذات جدوى، لأن أعداد المسلمين باتت تتزايد، وصارت همم المسيحيين تفتر لحظةً تلو الأخرى، اتفقا على تأمين حياتهما باللجوء إلى الجبال إلى حيث تلقى بهم الأقدار. بات الرجلان يتخلصان من الأسلحة والثياب، لكى يصيرا أخف أثناء سيرهما؛ فتمكن كاماتشو من النجاة بحياته؛ بينما ألقى ألبارو فلوريس بنفسه على إحدى الصخور - بعد أن انقطع نفسه- فأدركه الأعداء هناك، وقتلوه. أسفرت تلك الواقعة البائسة عن إكساب المسلمين الحماسة، حيث فُقِدَ فى ذاك اليوم ما يقرب من ألف[٢] مسيحى، وقدر وفير من الأسلحة والمتاع التى كانوا يحملونها؛ مما أسهم فى تعويض المسلمين جيداً عن الأضرار التى لحقت بهم فى لاروليس.

بدا ذاك الأمر وكأنه مشيئة الرب حقًا، لأنه كان من المفترض أن يكفى جندى واحد لمجابهة عشرة من المسلمين الأشرار العزل. لكن ما حدث أن رجلاً مسلمًا واحداً كان يقضى على عشرة مسيحيين، لما ألفى صدورهم يعتمل بها الخوف والجشع المفرطين فى آن واحد، حتى إنهم لم يرغبوا أن يدعوا المغانم من أيديهم أثناء مجابهتهم للمخاطر. ابتعد ستون جنديًا ليسلكوا واديًا منخفضًا، وتوجهوا لينزلوا ببلدة أدرا، حيث كان برفقتهم دليل قدير. تحصّن خمسون آخرون فى برج إحدى الكنائس، حيث أحاط بهم المسلمون، وأحرقوهم أحياء. لم يتمكن سوى القلائل من الفرار إلى الجبل مع خيرونيمو دى تابيا وأندريس كاماتشو، بينما لقى القائدان الآخران مصرعهما. انسحب أهالى بالور فى النهاية، بعد أن واصلوا ملاحقة الرجال لمسافة تربو على أربعة فراسخ؛ حيث كان الجنود يصلون إلى القرى مجهدين من الطريق وقد أعياهم العطش،

(٢) ربما كان الرقم مبالغًا فيه. (المراجع)

فيخرج السكان ليرووا ظمأهم ويقوموا بنحرهم. بعث المواطنون برجل إلى ماركيز مونديخار، ليبرئ ساحتهم من التهم التى من الممكن أن تُعزى إليهم. وألقوا بالأمر على كاهل القادة، وقالوا إنهم مستعدون لتسليم الأسلحة التى أخذوها من المسيحيين لاحقًا، لأنهم لا يرغبون سوى فى إقرار السلام. كان الماركيز يود الاستماع إليهم وقبول أعذارهم، بيد أن الغضب الذى اجتاح كل من بالمعسكر -صغارًا وكبارًا- صار عارمًا، ولم تكن أية حجة بكافية لتهدئة ثورتهم. قال الرجال إن المسلمين لا يسعون سوى للتضليل والشرور، وإن ماركيز مونديخار يدع أولئك الملحدين -الذين يعتبرهم رعاياه- يقومون بخداعه. ولم تكن هناك قلة فى الأشخاص البارزين الذين لجأوا إلى جلالة الملك بعرائض شكاوى، منتهزين فرصة تلك الخسارة الفادحة.

الفصل الثانى

يتناول قتل مسلمى تورونّ للقائد دييغو غاسكا، وقيام جنوده بنهب ذاك الموضع.

بعد مرور يومين على تلك الموقعة، أراد القائد دييغو غاسكا أن يشفى غليله من أهالى تورون، نظراً للأحد عشر جندياً التابعين له الذين قتلهم المواطنون، بعد أن حرضه على ذلك نفر من الرجال الذين كانوا ينتمون لتلك البلدة. فأغار عليها فى صبيحة أحد الأيام، بجنود المشاة والفرسان القادمين من أدرا، وقام بمحاصرة المكان. خرج حاجب القرية ونواب مجلس البلدية إليه، ليعرضوا عليه صك الأمان الذى فى حوزتهم. وأخبروه أن أهالى القرية رعايا مخلصون لخدمة الرب وجلالة الملك، وأنهم أطلقوا سراح المسيحيين القاطنين بين ظهرانيهم، ولم يسمحوا بحرق الكنيسة، وأنهم حينما باتت الظروف مواتية، ذهبوا إلى الماركيز لإعلان خضوعهم؛ حيث لم يجسروا على القيام بذلك من قبل خوفًا من الثوار الجبليين، وأنهم يتضرعون إليه من أجل أن يقف إلى جوارهم، ويدخلهم فى كنفه؛ وألا يدع الفرصة سانحة أمام من يرغبون فى إلحاق الضرر بهم، كما كان الحال مع نفر من الجنود العصاة، الذين قدموا إلى هناك فى تلك الأيام الماضية، وكانوا يودون نهب ديارهم.

أجاب دييغو غاسكا الأهالى بأنه لن يقوم بإيذائهم، وإنما سيبحث عن الأسلحة المخبأة لديهم، وعن تلك التى استولوا عليها من المسيحيين القتلى؛ كما سيلقى القبض على القتلة، لكى ينالوا جزاءهم أمام العدالة. وما إن دلف إلى البلدة -بعدما تجاهل الطلبات التى تقدم له بها الخاضعون، بموجب صك الأمان الذى فى حوزتهم- حتى انطلق الجنود من عقالهم، وبادروا بالانفصال عن الركب واقتحام البيوت، بحثًا عما

يحقق منفعتهم الخاصة. عندما دخل دييغو غاسكا مكانًا، وكان به نفر من المسلمين المشكوك فى أمرهم، وجه إليه أحدهم كلمات غير لائقة: فقال له إن ما يقوم به هو سرقة الناس، وليس البحث عن الجناة. فلمّا أراد القائد أن يلكمه، أخرج المسلم خنجراً كان قد خبأه، وغرزه فى جسده. فى أعقاب ذلك أجهز الجنود الحاضرون على القاتل وعلى من كانوا معه؛ واستشاطوا غضبًا لدى رؤيتهم المصير التعيس الذى لقاه قائدهم، فأطلقوا نيران أسلحتهم فى عجالة إيذانًا ببدء المعركة، دون أن يراعوا أى اعتبارات أخرى. كما سارعوا بالكيفية ذاتها إلى الهجوم على المواطنين المسلحين والعزل، فقتلوا منهم مائة وعشرين شخصًا؛ وسرقوا البلدة؛ وسبوا النساء والأطفال. رجع الجنود إلى مقر إقامتهم، مخلّفين وراءهم البيوت مشتعلة؛ وقسّموا الفىء، وكأنهم كانوا ينفذون أوامر محددة صدرت إليهم للاضطلاع بتلك المهمة؛ وقد غطى موت القائد على كل ما جرى.

كان دييغو غاسكا فتى مغواراً. وكان قد أفلح فى هزيمة ابن أمية ثلاث مرات عندما أغار هذا الأخير على أدرا، فى أثناء وجود السيد دييغو بها. أما المرة الأولى، فكانت فى يوم الثامن من شهر يناير عام ١٥٦٩، وقد اصطحب المسلم خلالها ثمانية آلاف رجل، بينما رافق القائد دييغو ستون فارسًا وثلاثمائة راجل، فغلبه وقتل مائتى مسلم[٤]. وكانت الثانية فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر ذاته، حيث عاود ابن أمية الهجوم على ذلك المعقل؛ فأفشل مسعاه، وأجهز على مائتين وعشرين مسلما آخرين من أتباعه. وكانت المرة الثالثة والأخيرة عندما سلبه ابن أمية ماشيةً من أدرا؛ فخرج إليه، واستخلصها منه، وأجبره على التراجع بعد أن ألحق به خسائر. وهكذا أسهمت تلك الانتصارات، وغيرها من الغارات التى اضطلع بها داخل الأراضى وانتهت بفوزه، فى ذيوع صيته بين المحاربين. فأسفوا لرحيله، خاصةً جنده - فطالما سعى قدر استطاعته لإفادتهم. وهو الأمر الذى يؤدى فى أحيان كثيرة إلى التعاطف.

(٤) العبارة بهذا الشكل تذكرنا بالمعارك التى خاضها رودريغو ضد المسلمين فى "ملحمة السيد"، دائمًا كان يحقق النصر، مع أن أعداءه يفوقونه عددًا. (المراجع)

الفصل الثالث

يتناول قلاقل أخرى أثارها المتمردون فى تلك الآونة فى البقاع الخاضعة.

فى تلك الآونة كان الجنود -الذين توجهوا مع الكاهن القانونى توريّخوس لإخضاع بقاع جبل فيلابرِس- حانقين لرؤيتهم مدى انتشار أجواء السلم؛ فتركوه وذهبوا. وقد انفصل مائتان وخمسون منهم عن الركب أثناء مسيرتهم. ووصلوا إلى بلدة باياركا Bayarca، وقاموا بنهبها وتوجهوا منها إلى البشرات. بيد أن مسلمى المنطقة حشدوا صفوفهم، وأغاروا عليهم، وذبحوهم جميعاً فى ذات اليوم الذى وقعت فيه حادثة تورون. كذلك فقد خرجت فى تلك الأثناء كتيبة مشاة من أهالى لورقة، من معسكر ماركيز بلش. وباتت تجوب بقاع بيرخا وداالياس لسرقتها جميعًا، حتى وصلت إلى بيثينة Pezcina - التى كان بها اثنان من جنود الحراسة. و كان ماركيز مونديخار قد تركهما مع الأهالى، ليقوما -إذا ما وصل بعض الجنود المخالفين إلى البلدة- بإشهار صك الأمان، ومنعهم من إحداث أضرار بها. على الرغم من أن الجنديين خرجا لملاقاة الكتيبة مع حاجب البلدة، وعرضا الصك على الجنود، فإنهم تصرفوا وكأنهم غير مجبرين على الالتزام بما جاء فيه، وكأنه لم يصدر عن ماركيز بلش. فاقتحموا المنازل فى غيظ، وقاموا بنهبها؛ كما أسروا ألفا وخمسمائة نفس -ما بين امرأة وطفل-؛ وقتلوا أحد جنديى الماركيز لأنه زجرهم على أفعالهم، وما يزيد على ثلاثين من المسلمين الخاضعين. فما كان من باقى الأهالى -وكانوا كثر- إلا أن فروا صوب الجبال؛ فحشدوا أعداداً أكبر من الرجال من البقاع المتاخمة، وخرجوا لقطع الطريق عليهم. استغل المواطنون فرصة ظهور ضباب كثيف للغاية، وهطول الأمطار المصحوبة بالبرد

-وكان أمرًا يصب فى صالحهم- لينقض عليه الجنود من اتجاهات مختلفة، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية. عندما لم يتسن للجنود الإفادة من بنادقهم -لأن الفتائل المشتعلة انطفأت لدى البعض؛ بينما ابتل مسحوق البارود لدى البعض الآخر، حينما كشفوا الغطاء عن مخزن الذخيرة الموجود فى أسلحتهم- تمكن المسلمون من الهجوم عليهم؛ كما أنهم كانوا فى ذات الوقت محملين بمغانم كثيرة من نساء وأطفال وماشية ومتاع. فنجح الموريسكيون فى هزيمتهم، ونحروهم جميعًا، واستولوا منهم على كميات كبيرة من البنادق والأقواس الفولاذية والسيوف، استطاعوا من خلالها تسليح من كانوا عزلاً.

عاد المسلمون إلى ديارهم، فى أعقاب تحقيق ذاك الانتصار والظفر بتلك المغانم، أقل سرورًا من الحالة التى عادة ما يكون عليها من لهم الغلبة، لأن أصحاب الرأى السديد أدركوا أن الأمر سيعجل بفنائهم. لم يكن ذاك حال السيد دييغو راميريث دى آرو -صاحب قلعة شلوبانية- الذى توجه صوب مولبيثار، وهى إحدى القرى التى تدخل فى نطاق سلطته، وكان قد لجأ إليها كثير من المسلمين الخاضعين، إلى جانب بعض المسلمين المقاتلين. عندما ألفاهم القائد يقطعون عيدان قصب السكر بالأجر فى بعض الحقول، اعتقلهم جميعًا. ثم مر إلى البلدة، فنهبها وسبى نساءها، دون أن يلقى من يتصدى له أثناء الذهاب أو الإياب. تم تقسيم تلك الغنائم بينه وبين السيد سانشو دى لِيّبا، لأن القوات كانت تضم رجالاً من جنود البرية والبحرية. كان المسلمون من نصيب السيد سانشو، الذى حملهم للتجديف على متن السفن؛ بينما بيعت النساء كإماء. لم يقل ما اقترفه قادة وجنود المعاقل، فى البقاع التى تخضع لسلطتهم، عما رويناه. حيث خرجوا فى حملات صغيرة، بحثًا عن منفعتهم الخاصة فى تلك الأجواء التى تتأرجح بين الحرب والسلام، قبل أن يتم إخضاع الأراضى بالكامل.

الفصل الرابع

يتناول كيف عاود مسلمو البشرات القيام بالثورة، وإشعال نيران الحرب، عقب انضمامهم إلى صف ابن أمية؛ بالإضافة إلى بعض الإجراءات التى قام بها جلالة الملك آنذاك.

حدثت تلك الاضطرابات والكثير من الوقائع الأخرى حينما كان ماركيز مونديخار ما زال موجوداً فى أورخيبا، فى انتظار تحرك السيد خوان دى أوستريا من العاصمة. وقد تحركوا بحيث كان الجنود المسلحون بالرماح وجنود المؤخرة يحيطون بجنود المشاة الذين انتظموا فى صفوف. وكان المنظر على هذا النحو يبث السرور، لولا أن السرور المبالغ فيه من قِبل البعض أيقظ الألم الذى يعتمل فى قلوب من فقدوا آباءهم، وأزواجهم، وأولادهم، وإخوانهم. فاشتعلوا غيظًا، فقد تصوروا أن الثوار سيفلتون من العقاب، وأن القائد العام هو الذى تبنى مسألة العفو عنهم. فى أعقاب خروج ماركيز مونديخار من البشرات، باتت الفرصة سانحة أمام ابن أمية لبسط سيطرته عليها كيفما شاء. لمّا لم يعد يتردد فى ارتكاب أى أعمال وحشية -لأنه لم يعد هناك من يخشاه- أمر بقتل العديد من الرجالات البارزين، والحجاب، ونواب مجالس البلدية من المستسلمين؛ وقال إنه يفعل ذلك لقيامهم بتسليم أنفسهم دون أن يحصلوا على إذن منه. كما بعث برسله إلى بلاد المغرب، لكى ينشروا أنباء عودة الانتصارات من جديد، والمصارع الكبرى التى لقيها المسيحيون. مما أثار الحمية فى نفوس العديد من الرجال المضطربين - الذين لم يكونوا قد حزموا أمرهم بعد، ظنًا منهم أن تلك الثورة هى شأن عابر- حتى يقدموا على إغاثته: فأمده بعضهم بالرجال والسفن، بينما دفع البعض الآخر أموالهم لتزويده بالأسلحة والذخائر.

الفصل الخامس

يتناول كيفية استقبال السيد خوان دى أوستريا لدى دخوله إلى غرناطة.

غادر السيد خوان دى أوستريا حدائق أرانخويث Aranjuez فى سادس أيام شهر إبريل. وكان قد توجه إلى هناك لتقبيل يدى صاحب الجلالة وتوديعه قبل مواصلة مسيرته، مصطحبًا معه لويس كيخادا. فشرع فى قطع مسافات متوسطة فى كل يوم إلى أن وصل إلى حصن اللوز -الذى يقع على بعد خمسة فراسخ من غرناطة - بعد ستة أيام. باتت المدينة تموج فى أجواء من البهجة، حينما وردت أنباء وصول السيد خوان ودخوله إلى البلدة فى اليوم التالى. وأمسى الجميع متشوقين للاحتفال بأميرهم شقيق جلالة الملك، ومولاهم الذى تعمر قلوبهم بحبه. خرج ماركيز مونديخار فى ذات اليوم برفقة كتيبة الفرسان التابعة لخوان دى كارباخال، وبعض القادة المقربين والفرسان، من أقربائه وأصدقائه؛ ليبيت تلك الليلة مع السيد خوان فى حصن اللوز؛ وينطلقا معًا فى صباح اليوم التالى إلى غرناطة. تقدم ماركيز مونديخار المسيرة، وصعد إلى حصن الحمراء، لكى يفسح المجال لإجراء مراسم الاستقبال. كان كونت تنديًا هو أول من خرج للترحيب بالسيد خوان دى أوستريا، يرافقه مائتان من الفرسان بكل أسلحتهم: مائة من كتيبة تِيُو غونثاليث دى أغيلار، ومائة من كتيبته -التى كان يترأسها غونثالو تشاكون. أما الجمع الثانى فقد ارتدى سائر أفراده الثياب الموريسكية، بينما لبس الآخرون قمصانًا من الساتان وحرير التافتاه القرمزى -وفقًا لتقاليدنا المعهودة. وقد تسلح هؤلاء وأولئك جيدًا بالتروس، والخوذات، والدروع، والحراب. فباتوا، باتخاذهم لزينتهم وتسلحهم بعتادهم، يمثلون منظرًا بديعًا وباعثًا على السرور.

وصل كونت تنديًا حتى قرية البلوط Albolote - التى تبعد مسافة فرسخ ونصف من المدينة- ثم عاد أدراجه، عقب تقديمه للتحية الواجبة؛ لكى يفسح المجال لغيره من السادة والفرسان الآخرين، الذين يرغبون فى تحية الأمير. كان سيادة الرئيس قد تلقى أوامر من جلالة الملك بشأن الترتيبات الواجب اتخاذها لاستقبال الأمير، والتى تمثلت فى: توجه الرئيس برفقة أربعة فقط من المستشارين الحقوقيين، بالإضافة إلى مأمورى الجرائم؛ وذهاب المأمور القضائى بصحبة أربعة من عمد القرى ونوابهم؛ وكذا رئيس الأساقفة مع أربع شخصيات من أعضاء المجمع الديرانى، يقوم هو باختيارهم. حينما علم الرئيس بقرب قدوم السيد خوان، خرج للانضمام إلى رئيس الأساقفة عند مفرق الطرق الكائن عند مدخل شارع إلبيرة، إلى جوار عمود الثور Toro. فلزم رئيس الأساقفة الجانب الأيسر، وخرج الجمع إلى المشفى الملكى، ثم ساروا مسافة مدى رمح وصولاً إلى جدول بيرو Beyro، وهو الموضع الذى ستجرى فيه مراسم الاستقبال.

وصل السيد خوان دى أوستريا فى الوقت ذاته، فتقدم الرئيس أولاً حينما شهد اقترابه، ودنا منه فى تواضع للترحيب به؛ فأحسن السيد خوان استقباله للغاية، وكان حاملاً قبعته فى يده، واحتضنه لبعض الوقت. ثم تنحى إلى أحد الجوانب، ليتقدم رئيس الأساقفة ويقوم بنفس الأمر معه. فيما بعد توالت وفود المستقبلين تبعًا لأقدميتهم، بدءًا بالمستشارين الحقوقيين والعمد، فالشخصيات الكنسية، ثم المأمور القضائى وعمد القرى، على تلك الشاكلة؛ وفى النهاية حضر الفرسان والمواطنون البارزون. كان سيادة الرئيس يقدم كل فرد منهم إلى السيد خوان، فيستقبلهم بمحبة بالغة، حتى شعروا جميعًا بالرضى. فى أعقاب انتهاء تلك المراسم، قام كونت ميراندا -الذى حضر برفقة السيد خوان- بالتقدم إلى الأمام، فتوسط رئيس المحكمة ورئيس الأساقفة، ليضحى سيادة الرئيس على الجانب الأيمن. ثم ساروا صوب المدينة وسط حشد لا يصدق من الناس، حتى أنهم غطوا تلك الحقول جميعًا. كانت قد شُكِّلت كتيبة من قوات المشاة بأسرها فى سهل بِيرو. عندما أضحت الصفوف الأولى لذاك الجمع بمحاذاتهم، شرع

الرماة فى إطلاق الأعيرة النارية، ودونما توقف؛ حتى أن الطلقات باتت تنهمر فى دفعة واحدة بارعة الجمال، لترسم منظرًا بدا بديعًا للغاية، ليس فقط لمن لم يشهدوا شيئًا مماثلاً من قبل، وإنما أيضًا للجنود المتمرسين الذين يتمتعون بخبرة كبيرة فى تلك الأمور. فلم تقو عينا ذاك الشاب -الذى استطاع بحميته القتالية إحراز انتصارنا البحرى- إلا أن يتعلق نظرها بحشود المشاة، الذين تخطى عددهم عشرة آلاف رجل.

لم يكن الجمع قد ابتعد كثيرًا حينما خرج لملاقاته حشد آخر من المستقبلين، وذلك فى مشهد يستثير الرحمة ويستدر الشفقة، رغمًا عن إنه قد أُعِدّ بمهارة(٥) لإثارة الغضب فى نفس السيد خوان ضد الموريسكيين. حيث خرجت أكثر من أربعمائة امرأة مسيحية، ممن كن أسيرات فى البشرات؛ واجتمعن كلهن مجردات من الزينة ومفعمات بالأسى، يندبن الأرض بعبراتهن، وينثرن عليها شعورهن الشقراء. حينما دنا السيد خوان منهن، كتم بعضهن نحيبهن الموجع، لكن ليس من دون تأوه ونشيج؛ فاحتضن آلامهن وقلن له: " العدالة ياسيدى! العدالة هى مطلب تلك الأرامل واليتيمات البائسات، اللواتى أحببن البكاء عوضًا عن أزواجهن وآبائهن. فإنهن لم يستشعرن كل ذاك الألم إزاء سماعهن لطلقات الأسلحة التى قتلهن بها المارقون، هن وأبناءهن، وإخوانهن، وأقاربهن؛ كما أحسسن به حينما أدركن أنه سيتم العفو عنهم". وواصلن بث شكاواهن، ويتن يتحدثن واحدة تلو الأخرى بأصوات مختلطة؛ فلان قلب السيد خوان دى أوستريا لدى رؤيته لهن على تلك الحالة، وقال لهن أن يصمتن. كما أنه عزّاهن، وطلب منهن التحلى بالصبر، والتأكد من أنه سيحقق لهن العدالة حينما يضحى ذلك ممكنًا.

من هناك دلف إلى المدينة، فرأى بها مظاهر حزن أقل، ومظاهر زينة وسرور أكثر. حيث اكتست النوافذ المشرفة على الشوارع التى سيعبر منها السيد خوان بأقمشة موشاة بالذهب والحرير، وقد أطلت منها العديد من السيدات والفتيات النبيلات،

---

(٥) من السهل تخيل الجهة التى أعدت هذا المشهد حتى لا يلين قلب الأمير ويعفو عن الموريسكيين. لم يكونوا أصحاب الأراضى قطعًا. (المراجع)

المتحليات بالزينة الفخمة، ممن جئن من سائر أرجاء المدينة لرؤيته. فمر بالطرقات وهو ينظر من جهة إلى أخرى، فى هيئة لا يقل جمالها عن وقارها، حتى وصل إلى مقر المحكمة العليا. وكان الرئيس قد أعد له مسكنًا بها، وذلك فى بعض القاعات المزينة بفخامة تتفق ومكانة الشخص الذى سينزل بها. وقد قام كل من رئيس الأساقفة وكونت تينديًا بتوديع السيد خوان قبل أن يترجل من على صهوة فرسه، بينما رافقه سيادة الرئيس حتى أودعه مقر إقامته قبل أن ينصرف.

الفصل السادس

يتناول كيف أناب موريسكيو البيّازين بعض الأشخاص للتوجه لتقبيل يدى السيد خوان دى أوستريا، وإخباره بأحوالهم.

حينما تراءى للموريسكيين أن السيد خوان دى أوستريا قد استراح من عناء الطريق، اجتمع أكثر رجالهم ثراء وبروزا، وأنابوا أربعة أفراد من أفضلهم معرفةً باللغة القشتالية، حتى يتوجهوا -برفقة النائب العام- لتقبيل يديه نيابةً عن الأمة الموريسكية بأسرها، وليقصوا على مسامعه ما كان من شئونهم. توجه النواب إلى مقر إقامة السيد خوان، وعقب تقديمهم لفروض الولاء والطاعة، تحدث النائب العام على النحو التالى: "إن هؤلاء الرجال يشعرون بسعادة غامرة لدى رؤيتهم لسموكم، وقد جئتم إلى المدينة لمعالجة الشرور الكثيرة التى تحدث بها، والتى تمثل بالنسبة لهم الهلاك المحقق. وهم يخشون أن يكون البعض قد لاكوهم بالألسنة، وزودوا سيادتكم بمعلومات زائفة حول ولائهم، قائلين إنهم هم مقترفو الشرور، أو إنهم آووا الآثمين. بيد أنهم لديهم ثقة فى الرب، وفى عطف وحنو جلالة الملك، حتى يتم الوقوف إلى جانب الأوفياء والإحسان إليهم؛ كما تقتضى العدالة تطبيق العقاب الرادع على من يظهر تورطهم فى نشوب التمرد. وهم يشكون من مضايقة القائمين على شئون العدالة ورجال الحرب لهم، ومطالبتهم بتقديم الرشاوى؛ كما أن الجنود يسرقون ضياعهم وينتهكون حرمات منازلهم، بينما لم يعالج رؤساؤهم تلك المسألة حتى الآن. وهم يتضرعون إلى سيادتكم أن تحلوا تلك القضية، التى طالما أضرتهم فى الماضى؛ والحيلولة دون حدوث ذلك فى المستقبل؛ وذلك على نحو يمنع إعاشة الجنود فى ديارهم، ويتيح لهم حرية الذهاب آمنين مطمئنين إلى أشغالهم. وهم يدركون جيداً أن كل فرد فى هذه المملكة يحاول

تعضيد رأيه السيء، أو يرفع من قدره، على النحو الذى حمل الكثيرين على التخوف من أمور اختلقوها هم أنفسهم. لكن وجود سموكم يطمئنهم، فهم يضعون حياتهم، وشرفهم، وممتلكاتهم تحت مظلة حماك وكنفك".

إلى هنا انتهت كلمات النائب العام. وقد أجابه السيد خوان دى أوستريا، فى سكينة أخاذة أضفاها الرب على محياه، بالكلمات التالية: "لقد أمرنى مولاى الملك بالمجيء إلى هذه المملكة لإقرار الهدوء والطمأنينة بها. فلتتأكدوا أن كل من كان وفيًا لمولانا وربنا، ولجلالة الملك -كما تقولون- فسوف تتم مراعاته، والوقوف بجواره وتكريمه، كما أننا سنحافظ على حرياتكم وممتلكاتكم. لكن عليكم أن تدركوا أيضًا أنه إلى جانب تطبيق المساواة والشفقة مع من يستحقونهما، فإن من لا ينطبق عليهم ذاك الأمر سوف يعاقبون فى حزم شديد. وفيما يتعلق بالأضرار التى يقول نائبكم العام إنكم تعرضتم لها، فلتعطونى مذكراتكم فى ذاك الصدد، وأنا سآمر بالتحقيق فيها ومعالجتها لاحقًا. وأود أن أنبهكم إلى أن تكون أقوالكم فى جانب الصواب؛ وإلا ستكونون قد أسأتم إلى أنفسكم". وهكذا انصرف الموريسكيون. وقد نصّب السيد خوان دى أوستريا فيما بعد الأب لوبيث دى ميسا **López de Mesa** -القاضى فى محكمة غرناطة العليا- مستشارًا ماليًا وقانونيًا عامًا، وأحال إليه كل شكاوى الموريسكيين. أما بالنسبة للأملاك المصادرة، والأمور المتعلقة بممتلكات جلالة الملك، فقد رسّم كلاً من الأب رودريغو باثكيث دى أرثِى **Rodrigo Vázquez de Arce** والأب مونتينيغرو سارمينتو **Montenegro Sarmiento** مستشارين حقوقيين لها.

الفصل السابع

يتناول كيف شرع السيد خوان دى أوستريا فى تفهم مسألة الثورة، والروايات التى قدمها كل من ماركيز مونديخار والرئيس فى المجلس.

مكث السيد خوان دى أوستريا عدة أيام فى غرناطة دون أن يعقد مجلس الشورى، فى انتظار قدوم دوق سيسا؛ حيث كان -وفقًا لما ذكرناه آنفًا- أحد المستشارين الذين كان لابد من وجودهم إلى جواره. وفى تلك الأثناء قام بزيارة البيّازين، وسائر أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج. كما نظم نقاط الحراسة، والنوبات والدوريات فى الأماكن الملائمة التى يلزم حراستها؛ وذلك من أجل أمن المدينة وسلامتها، وأيضًا لمنع إلحاق الضرر بالموريسكيين. وقد ساعد فى الأمر برمته كل من ماركيز مونديخار ولويس كيسادا. وصل دوق سيسا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر إبريل، وبدأ فى مباشرة أعماله. فى اليوم التالى أُقِيم استعراض عام، وذلك للوقوف على عدد المشاة والفرسان الموجودين فى المدينة وبقاع الغوطة، سواء كانوا من الأهالى أو الغرباء. فى أعقاب ذلك اجتمع الرجال للتشاور حول أفضل السبل موائمةً للأوضاع من أجل نهجها. وكان جلالة الملك قد أمر بالاستماع إلى روايات كل من ماركيز مونديخار ورئيس المحكمة قبل القيام بأى شىء، لكونهما أكثر شخصين قادرين على تزويده بالمعلومات حول ذاك الصدد.

كان ماركيز مونديخار أول من تصدى للحديث، فراح يشرح بالتفصيل الدقيق مجريات الحرب بأسرها، والأمور التى قام بها من جانبه حتى تصل الأمور إلى الوضع الراهن، فقلل من شأن التمرد فى ظل انضباط المقاتلين، ورجح جانب القتال كأقصر

الحلول وأكثرها أمنا. وقال إن النظام والخطة اللذين يمكن وضعهما للإسراع فى تحقيق الأمر يتمثلان فى واحد من ثلاثة سبل. السبيل الأول يقضى بالمضى قدماً فى مسألة الإخضاع، لأن بقاع البشرات لا تزال راغبة فى الأمر وتطالب به. عقب استسلامهم، سيصدر إليه الأمر بحشد الجميع فى موضعى بيرخا ودالياس؛ وهو ما يمكن تنفيذه فى سهولة بالغة نظراً لإطاعتهم للأوامر؛ وهو سيتولى إيداعهم هناك. بعد تجميعهم فى تلك الأراضى المستوية، وبسط النفوذ على المناطق الجبلية بواسطة المحاربين، فسيضحى فى الإمكان تنفيذ ما يأمر به جلالة الملك فى يسر، لأن الثوار الجبليين لم يعد أمامهم سوى البحر على الطرف الآخر -كما هو الوضع فى الوقت الحالى. أما السبيل الثانى، فى حال عدم تحقيق الأول للنتائج المرجوة ، فيتمثل فى وضع معاقل من المحاربين فى الأماكن المناسبة -على النسق الذى كان قد فكر فيه- لأن أهل القرى يلحون فى المطالبة بذلك، وهم ملتزمون بالتكفل بنفقات إعاشة الجنود، من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار التى يلحقها بهم الرجال الضالون. وما أن توضع تلك المعاقل، سيصبح من الممكن إرسالهم برفقة أحد الحجاب لإلقاء القبض على أكثر الرجال اقترافاً للآثام، ومن يبدو أنهم يستحقون العقاب. أما السبيل الثالث، إذا ما تراءى للجمع أنه يتعين استخدام المزيد من الحزم معهم، فسيكون السماح للماركيز بمعاودة الدخول إلى البشرات مع ألف من الجنود ومائتين من الفرسان. على أن يقوم، بمساعدة هؤلاء ومن كان قد أبقى عليهم فى أورخيبا، بتدمير الغلال وإحراق كافة المؤن الموجودة لديهم -وكان قد امتنع عن القيام بذلك للإفادة منه فيما بعد. وفى حال تزويده هو بما يلزمه، لابد للثوار من القدوم إليه للاستسلام وأيديهم مغلولة".

إلى هنا أنهى ماركيز مونديخار حديثه. فما كان من السيد خوان دى أوستريا، الذى كان ينصت فى اهتمام إلى ما يقوله، إلا أن التفت إلى الرئيس، وقال له أن يخبرهم هو أيضاً بما يعتقد أنه من الضرورى القيام به للانتهاء من تلك القضية على وجه السرعة. وقد عرض الرئيس رأيه على النحو التالى: " على الرغم من أن جلالة الملك قد أمر بأن أقدم العون هنا إلى جانب سيادتكم، فإننى لم أعتقد قط بأننى سأضطر لإبداء رأيى فى شئون الحرب. فأنا لا أتعامل معها ولا أفهم فيها، وهذه أشياء

تبتعد كثيراً عن اختصاصات وظيفتي؛ وخاصةً حينما يوجد هنا من يعي تلك الأمور جيداً، مثل دوق سيسا، وماركيز مونديخار، ولويس كيخادا. لكن بما أنني قد أُمِرت بذلك، فسوف أقول ما أشعر به، وما أظهرته لي التجربة خلال تلك الأيام المنصرمة. هناك أمران أيها السيد الموقر لابد من القيام بهما -في وجهة نظري- قبل اللجوء إلى أي طرق لمعالجة الأمور، حتى تحظى تلك الإجراءات بنهاية جيدة. الأمر الأول هو إخراج أولئك الموريسكيين من البيّازين ومن قرى الغوطة والجبل، وإيداعهم مناطق تقع إلى الداخل؛ لأنه طوال وجودهم هنا لن يكفوا عن الوقوف في صف الثوار، ومساعدتهم عن طريق إمدادهم بالتنبيهات، والأسلحة، والرجال؛ وسيبيت من الصعب محاولة إعاقتهم عن القيام بذلك، لأنه لا يمكننا وضع أبواب للحقول. أما الأمر الآخر، فإنه من أجل تهدئة غضب سيدنا وربنا، من جراء كثرة الآثام وانتهاك المقدسات التي اقترفها الملحدون الخائنون، فإنه من المناسب أن ينالوا عقاباً رادعًا. وسيضحى من الجيد البدء بقرية لاس ألبانيويلاس، التي يوجد بها العديد ممن ألحقوا أضراراً بالغةً بالكنائس، حيث ازدروا وحطموا كل الأشياء المقدسة؛ وقد لجأ ثوار الجبل إلى هناك بحجة قدومهم للاستسلام. وقد قام الأهالي باستضافتهم في منازلهم تحت ذاك الستار، لكي يتسنى لهم مناصرتهم بصورة أفضل؛ فهم يخرجون معهم لسرقة ونهب المسيحيين في سائر الإقليم، ونحن لدينا الكثير من الروايات حول ذاك الصدد. هذان الأمران على جانب كبير من الأهمية، وإذا ما تم تنفيذهما، يمكن التوصل إلى قرار -بقدر أكبر من الاتفاق- حول ما يراه سموكم أكثر موائمةً لخدمة الرب وجلالة الملك". بهذا انتهى الاجتماع لذاك اليوم. وقد تم، في الجلسات الأخرى التي انعقدت لاحقًا، تداول القضية بشكل أكثر توسعا؛ وذلك على النحو الذي سنسوقه في الفصل التالي.

الفصل الثامن

يتناول الآراء التى تم تداولها فى غرناطة حول إخراج الموريسكيين من هناك، وبعض الإجراءات التى قام بها السيد خوان دى أوستريا.

هذان الرأيان -اللذان لا يقل تضاربهما عن الاختلاف الكائن بين من أدليا بهما[٦]- أبقيا أعضاء المجلس فى حالة من الاضطراب على مدار عدة أيام. وفى الاجتماعات الأخرى، التى عولجت فيها ذات القضية، لم يتوقف ظهور التباين فى وجهات النظر والآراء فى ذاك الصدد. كان دوق سيسا مؤيداً لإخراج الموريسكيين من البيّازين، بينما صعّب كل من رئيس الأساقفة ولويس كيخادا الأمر للغاية؛ حيث بدا لهما أنه سيصير من المستحيل طرد ذلك العدد الضخم من الأفراد من منازلهم دون حدوث قلاقل. كما عارض ماركيز مونديخار ذاك الشأن، وقال كيف يمكن إخلاء مملكة كتلك من أهلها، حيث سيفسد محصول الفواكه فى الأراضى، وذكر أن هذا الإجراء يتماشى للغاية مع تلك الأمة المعتادة على المعيشة بين تلك الجبال، والتى تقتات على النذر اليسير، وهذا لا يصب فى مصلحة المسيحيين. قدم إلى غرناطة فى غضون تلك الأيام الأب بِيربِيّسكا دى مُونياتونِيس Birviesca de Muñatones -عضو المجلس الملكى، ومجلس شورى جلالة الملك- وذلك أيضاً من أجل تقديم يد العون بالقرب من شخص السيد خوان دى أوستريا. فى بادئ الأمر لم يبد له أن طرد الموريسكيين من الأرض يمثل حلاً جيداً،

(٦) يشير كثير من الباحثين -خاصةً كارو باروخا- إلى العداء الشديد بين ماركيز مونديخار ورئيس محكمة غرناطة، فقد كان الأول متعاطفاً مع الموريسكيين كشأن آل مندوثا، بينما كان الثانى متشدداً. (المراجع)

نظرًا لما سيسفر عنه الأمر من معوقات فيما بعد. بيد أن كلاً من الرئيس والأب بوهوركيس Bohorques استمالوه لاحقًا لتبنى وجهة نظرهم، بعد أن قدما العديد من الحجج.

حينما أدرك ماركيز مونديخار أن صوته أضحى وحيداً، نظرًا لعدم تخليه عن رأيه الأول، بات موقفه متماشيًا مع رغبة الجميع؛ حيث كانت الأضرار التى تسبب بها المسلمون فى تلك الآونة فادحة بالفعل، وكانت صادرة من الأماكن الخاضعة. بيد أن موافقته كانت على نحو حاول فيه إعاقة الأمور وبيان وجود معوقات ضخمة، دونما إبداء معارضة. فقال إنه لا يسعنا سوى الإقرار باقتراف الموريسكيين لجرائم شنيعة، وبخاصة من ثار منهم؛ بيد أن طرد جميع الموجودين بالملكة منها لا يعد إجراءً آمنًا. بل إننى أدرك أنهم يفضلون أن يتم أولاً تقطيعهم إربًا جميعًا، على مغادرة ديارهم واللجوء إلى الأماكن التى يؤمروا بالتجمع فيها. إنه ليس من الجيد أن نغفل معاقبة المذنبين فى حزم، لكن من بين الموريسكيين هناك العديدون ممن لم يرتكبوا الجرائم التى قام بها الآخرون، أو حتى ثاروا على الحكم. كما أن الكثيرين منهم أقدموا على ما فعلوا رغمًا عنهم، حيث أجبرهم الأشرار على ذلك؛ ولمّا كانت الأمور على تلك الشاكلة، فإنه سيضحى من الأفضل اتباع أحد الحلول التى تقدمت بها، وعدم تطبيق تلك الإجراءات شديدة الحزم، أو الحكم عليهم بعقوبات مماثلة. فإذا ما كان المجلس يرى أمرًا آخر، فإن أقصر الطرق للانتهاء من الأمر برمته هو انتهاج آخر السبل التى اقترحتها. حينما أدرك فى نهاية الأمر مدى الوقع السيئ الذى لقيته آراؤه، صاغها كتابةً، وبعث بها إلى جلالة الملك مع ولده الثانى السيد إنييغو دى مندوثا[٧].

دار العديد من المناقشات حول ذلك الأمر، واستغرقت المناقشات مدةً طويلةً، مما أتاح للثوار فرصة إعادة تكوين صفوفهم، كما ذكرنا من قبل. لما باتت الشرور تزداد واحداً تلو الآخر، عقد الجمع عزمهم على أن الطريقة الأكثر موائمةً هى إقصاؤهم بقوة

(٧) لاحظ أن ماركيز مونديخار لا يتخلى عن تعاطفه مع الموريسكيين، رغم انحيازه الظاهرى لآراء المجلس. (المراجع)

السلاح، حتى يذعنوا ويقدموا على فعل ما يؤمرون به. لم يتهاون السيد خوان دى أوستريا فى تلك الآونة، وحكم بما يقتضيه أمن تلك المملكة. وحينما حزم أمره وقرر استكمال مسيرة الحرب، على الرغم من أن تأخير شنها كان أمرًا يؤرقه، أمر بتجهيز كافة الأمور اللازمة للقيام بذلك على وجه السرعة، حيث أصدر أوامر جديدة إلى المدن والنبلاء لكى يقدموا خدماتهم فى تلك الحرب، عن طريق إرسال الرجال، وبذل الأموال من أجل دفع رواتب الجنود ومنعهم من الرحيل. وفى تلك الأثناء قرر إغاثة الحملة بنقود من أملاك جلالة الملك، حيث كان يرغب فى تخفيف الأعباء التى يضطلع بها موريسكيو البيّازين والغوطة. كما قرر من جديد تعيين قادة يتكفلون بتجنيد عسكر من المشاة والفرسان بالأجر. وقسم الرجال إلى ثلاثة أقسام، ووزعهم على ثلاثة من القادة القدماء، حتى يتولوا أمرهم بمعاونة نواب. وهؤلاء القادة هم: أنطونيو مورينو، وإيرناندو دى أرونيا، والسيد فرانثيسكو دى مندوثا **Francisco de Mendoza** – و كان من أهالى قلعة عبد السلام. وكذلك فقد قام بتجهيز المعاقل، فترك فى بعضها من كان بها من القادة، بينما نصّب قادة جدد فى البعض الآخر. فأوكل منطقة بسطة إلى السيد إنريكى إنريكيث، بينما أمّر السيد دييغو دى بيًا رَويل على مدينة ألمرية، وترأس السيد دييغو راميريث دى آرو قوات شلوبانية. كما أرسل السيد لوبى دى بالينثويلا **Lope de Valenzuela** –وكان من مواطنى بياسة– إلى المنكب، ليقوم بدور المفوض العام فى البيّازين تحت إشراف ماركيز مونديخار؛ أما مطريل، فقد عهد بها إلى السيد لويس دى بالبِيديا **Luis de Valvidia**. وقد طلب منهم جميعًا توخى الحذر الشديد، لأنه قد وردت إليه أنباء حول وصول سفن من بلاد المغرب إلى ساحل البشرات، محملةً بالرجال والأسلحة والذخائر، لتدعيم الثوار.

كما أصدر السيد خوان قرارات متعلقة بتعزيز أمن الحصون والقلاع، وتأمين الطرق، لأن المسلمين استغلوا حلول فصل الصيف –الذى كان ملائمًا للغاية لتطلعاتهم– ، فخرجوا فى جرأة للاستيلاء على الرجال والمواشى، والهجوم على الدوريات المتوجهة للانضمام إلى معسكر ماركيز بلش وإلى أورخيبا. فسلّم القائد ناباس دى بويبلا **Navas de Puebla** مقاليد الأمور فى حصن قلهرة، وأمّر خوان بيريث

دى بارغـاس Juan Pérez de Vargas –وهو من أهـالى غـرناطة– على حـصـن فينيـانا.
كما تقلّد رئاسـة حصن غور السيد دييغو دى كاستيًا، سيد ذاك المكان، والذى يقطن به أيضـًا؛ وترأس دييغو بونثى -أحد مواطنى إشبيلية– حصن بادول. عهد السيد خوان دى أوسـتريا برجـال الحـامـة إلى القـائد إيرنان كـاريّو دى كوينكا، آمرًا إياه أن يقـوم ببعض الغـارات فى منطقـة غواخـاراس لتـأمين تلك الأراضى. كـمـا أسند قـيـادة قـوات البلدان السبـع إلى السيـد ألونسو دى ميـخـيًا Alonso de Mejía أحد وجـهـاء غرناطة، وأمره بأن يقيم فى حصن اللوز؛ وأن يعمل على تأمين طريق غرنـاطة ووادى آش، حيث يهبط المسلمون من الجبال للقيام بالعديد من عمليات النهب. أمـا السيد إيرناندو ألباريث دى بوهوركيس Hernando Álvarez de Bohorques –أحد أهـالى بيًا مـارتين Villa-Martín– الذى كـان قـد حـضـر منذ البـداية عندمـا سـرت أنبـاء وقـوع الثـورة، واصطحب عـشـرين فارسـًا وبعض المشـاة على نفقتـه الخـاصـة؛ وقـد انتـهى الآن من تكوين سـرية قـوامـهـا مـائتـان وخمسـون جنديًا –فقد أمره السـيـد خوان بالإقامة فى موضـع غيبيـخـار، على مقربة من جبل كوغويّوس. كـمـا أصـدر إليه الأوامـر ليـجـوب أرجاء تلك المنطقـة؛ ويشن غـارات على الجـهـة التى يقـع بهـا ذاك الجـبل، والتى يـخـرج منهـا المسلمـون ليلاً لنهب المـاشية من الغوطة، وإحداث أضـرار أخرى.

فى أعـقـاب القـيـام بكل تلك الإجراءات، بالإضـافـة إلى أمـور أخرى سـوف نغـفل ذكرهـا، وجه السيد خوان دى أوسـتريا أمرًا إلى السـيـد فرانثيسكو دى سـوليس Francisco de Solís –وهو من أهـالى باداخـوث– لكى يشـغـل منصب المفوض العـام والمورد العـام، بتكليف من جـلالة المـلك؛ وأن ينصّب فرانثيـسكو دى سـالابلانكا Francisco de Salablanca مراجعًـا عامًا لحسـابات الجيش[٨]. على أن يضـطلع كلاهمـا بشـراء المؤونة، والأسلحـة، والذخـائر، وسـائر الأمـور الأخرى التى تلزم المقاتلين. كـمـا أمر السيـد خـوان بأن يُنادى بين النـاس للمرة الثـانيـة أنه على كل الموريسكيين الذين قـدموا إلى البيّـازين

(٨) مبلغ علمنا أن المؤلف نفسه كان مراجعًا لحسابات الجيش خلال الحرب. (المراجع)

من القرى الجبلية ومن الغوطة أن يعودوا إلى ديارهم حفاظًا على حياتهم. فى نهاية الأمر، صدرت الأوامر لإقرار شتى الأمور اللازمة لتشكيل جيش يكفى لمواصلة الحرب بكفاءة ومهنية. وحتى يتم منع الثوار من الإفادة من مواشى الموريسكيين المسالمين فى البقاع المتاخمة لغرناطة، قرر أن يتم تجميعها كلها فى الغوطة؛ وقد تولى تلك المهمة السيد أنطونيو دى لونا والسيد لويس دى كوردوبا، كل بمفرده. فاضطلع السيد لويس دى كوردوبا بإجلائها من جبل كوغويّوس، بينما أرسل غونثالو أرغوتى دى مولينا لجمعها من البقاع الجبلية. وقد رافقه ثلاثون رام على صهوة الجياد، قام بإرسالهم على نفقته الخاصة، بعد أن أودع رجاله على متن السفن كما أسلفنا؛ بالإضافة إلى ثلاثين من حملة الرماح. أما السيد أنطونيو دى لونا، فقد تولى تجميع الماشية من المواضع الكائنة ناحية وادى ليكرين. وسوف نستعرض الآن ما دار فى تلك الآونة فى المنطقة التى يشغلها ماركيز بلش.

الفصل التاسع

يتناول كيف أراد ماركيز بلش وضع قواته فى البشرات، وإنشاء معقل حصين فى ميناء رباحة؛ والكيفية التى أعيق بها دخوله، وتغلب المسلمين على الجنود الذين تولوا إقامة المعقل.

فى أعقاب قضاء ماركيز بلش أيامًا عديدةً فى تيركى؛ ورغبةً منه فى القيام بعمل جيد، دون أن يستشير السيد خوان دى أوستريا حول ما ينتويه حتى مغادرته وقواته مقر إقامتهم؛ توجه إلى أندرش، وذلك بعد أن بعث السيد خوان إنريكى فى المقدمة حاملاً تقريراً حول الحالة التى بلغتها شئون الحرب -كان جلالة الملك قد طالبه بتزويده إياه- ، وبتنبيه حول مغادرته لموضعه. من أجل أن تتمكن الدوريات التى ستحمل إليه المؤن من المرور بأمان من وادى آش، أصدر الماركيز أمرًا إلى السيد بدرو أرياس دى أبيلا -المأمور القضائى لتلك المدينة- لكى ينشئ نقطة حراسة فى أعلى ميناء رباحة يمكنها استيعاب كتيبتى مشاة فيها، وذلك بغرض إقامة معقل يهدف لتأمين ذلك المعبر.

بعد أن علم السيد خوان دى أوستريا بتحرك القوات، والنية التى يسعى ماركيز بلش إلى تحقيقها؛ وعقب استطلاع رأى مجلس المشورة، أرسل إليه كتابًا على وجه السرعة ، أمرًا إياه أن يوقف مسيرته وألا يمضى إلى الأمام بمجرد تسلمه ذلك الكتاب، لأن ذاك الأمر هو ما يتماشى مع صالح جلالة الملك. كما أفهمه إنه إذا ما توغل داخل تلك الرقعة من البشرات، فسوف يتراجع الأعداء باتجاه أورخيبا، ويغيرون على معسكر

السيد خوان دى مندوثا، الذى ينقصه الكثير من الرجال، وقد يتمكنون من إحلال الهزيمة به. لم يكن ذاك هو الداعى لتوخى الحذر، بل كان حجة لحرمانه من القيام بالحملة التى كان يرغب فى شنها وفقًا لأهوائه الشخصية. فى نهاية الأمر أوقف الماركيز مسيرته إبان تسلمه للرسالة، وتخلى عن الطريق الذى كان يسلكه، وتوجه للإقامة فى موضع بيرخا، ليضحى أكثر قربًا من مسعاه. وقد تذرع بتدعيم مدينة المرية، والاستفادة بمواقع تلك الطاعة وطاعة داليّاس. كما لم يفلح فى تحقيق مغزاه بإقامة المعقل. وكان بدرو أرياس دى أبيلا قد أرسل القائد غونثالو إيرنانديث، وهو رجل مغوار وُلِدَ وتربى فى وهران، ليضطلع بتلك المهمة برفقة ثلاث من كتائب المشاة: كتيبتى أُبدة -اللتين يترأسهما خورخى دى ريبيرا **Jorge de Ribera** وأرنالدوس دى أورتيغا **Arnaldos de Ortega**-، وكتيبة أخرى تابعة لخوان دى بينابيديس **Juan de Benavides** -أحد مواطنى وادى آش.

فى أعقاب بدء العمل، وإقامة بعض الحوائط المنخفضة على غرار الخنادق، لكى يحتمى بها الرجال، اجتمع فى اليوم الثالث من شهر مايو ثلاثة قادة مسلمين، وهم: الحانون **Hanon** من غيبيخار، والفوتِيّ من لانتيّرا **Lanteyra**، والثيرّيا **Zerrea** من ثوخار **Zújar**. وأغاروا على النقطة الحصينة عندما كان الجنود منهمكين فى الإسراع فى أعمال البناء، وكان ما لدى الموريسكيين من رجال يفوق جنود معسكرنا بقليل. أشهرت الدوريات أسلحتها وأطلقت التنبيهات إزاء رؤيتها للمسلمين، فقام غونثالو إيرنانديث بدفع مجموعة قوامها مائة وخمسون رام، وأودعها عند حافة الجبل. وبعد أن أصدر أوامره إلى الألوية لكى تصطف على هيئة سرايا خارج النقطة الحصينة، خرج فى صحبة نفر من الجنود لاستطلاع أحوال الأعداء. قسّم المسلمون أنفسهم إلى عدة مجموعات، وإن كان كل منها يحوى عددًا قليلاً من الرجال. فتمركز بعضهم عند الطريق الملكى -الذى كان غونثالو إيرنانديث متوجهًا صوبه-، بينما سلك آخرون سبل رعاة كان لهم دراية بها؛ ثم هجم الجميع فى آن واحد على الجنود المصاحبين للألوية. وباتوا يطلقون

صرخات حرب مدوية، مما حمل الجنود على الاعتقاد بأن أعدادهم تفوق عددهم الحقيقى. أراد خوان دى بينابيديس التحصن داخل الأسوار الهزيلة، مخالفًا بذلك رأى نفر من الجنود القدامى، الذين قالوا إنه لا ينبغى إظهار الضعف أمام الأعداء فى أى وقت من الأوقات. وكان ذاك هو ما حدث، فما أن أدار الجنود وجوههم وتوجهت الرايات صوب النقطة الحصينة، حتى تحرك المسلمون فى سرعة فائقة ودخلوا فى أعقابهم؛ فاضطرب رجالنا للغاية بحيث لم يجد فيه الأعداء من يتصدى لهم.

قتل المسلمون كلاً من خوان دى بينابيديس، والضابط بدروسا Pedrosa –الذى كان يتولى قيادة كتيبة أرنالدوس دى أورتيغا، الذى كان يرقد مريضًا فى وادى آش. وقد لاذ الباقون بالفرار، وهرب الرماة على أثرهم، دون أن يستطيع غونثالو إيرنانديث إيقافهم؛ مما شكّل عارًا كبيرًا على أمتنا. تتبع المسلمون آثارهم، وقتلوا مائة وسبعين جنديًا، وظفروا بلواء خوان دى بينابيديس. أما الرايتان الأخريان، فقد أنقذ فيليثيانو تشاكون Feliciano Chacón راية لخورخى دى ريبيرا، الراية التى يحملها بعد جهود مضنية؛ بينما استخلص عبد أسود مُحرر راية أرنالدوس دى أورتيغا– التى كان يحملها. تمكن غونثالو إيرنانديث من الفرار بأعجوبة، على غرار ما يحدث فى العديد من الأحايين عندما يُبقى الموت على حياة أقل الناس مهابةً له، حيث عبر ما بين الأعداء دون أن يقدر أحد على التعرض له. وصل باقى الرجال أجمعين إلى وادى آش مجردين من الأسلحة، حيث كانوا قد تخلوا عن البنادق والسيوف لتخفيف الحمل، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الثياب(٩) ثقيلة الوزن.

حينما وردت أنباء تلك الفضيحة إلى غرناطة، أراد السيد خوان دى أوستريا أن يضع شخصًا ينوب عنه فى وادى آش؛ حيث تراءى له أن المأمور القضائى يجب أن يُقال بسبب ما قام به، لأنه لم ترده أوامر مسبقة منه. فنصّب القائد فرانثيسكو دى

---

(٩) موضوع ثياب ذلك العصر يغرى بالدراسة. (المراجع)

مولينا -وهو أحد مواطنى أبدة- رئيسًا للقوات المحاربة فى تلك الأرجـاء. ورغبةً منه فى تلافى حـدوث كارثة فى منطقـة أورخـيبـا التى يوجد بهـا السيـد خـوان دى مندوثا سارمينتو، أرسل السيد لويس دى كوردوبا على رأس عدد من جنود المشاة والفرسان لتدعيم ذاك المعسكر. انطلق السيد خوان من غرناطة فى يوم الاثنين الموافق الثالث عشر من شـهر يونيو، فـوصل فى ذات اليوم إلى أورخـيبـا. وقـد مكث بهـا إلى أن تم تقسيم ذاك المعسـكـر، على النسـق الذى سنتعرض له عنـدما يحين الحـديث عن ذاك الأمـر.

الفصل العاشر

يتناول الاستعدادات والاحتياطات التى قام بها ابن أمية فى البشرات فى تلك الآونة، وكيف أشعل الثورة فى لا بيثا.

كانت ترد تنبيهات إلى ابن أمية حول كل ما يدور فى غرناطة، وذلك من خلال موريسكيى البيّازين الذين كانوا يذهبون كل يوم إلى البشرات. فما كان منه -حينما أدرك أن الأمر برمته يتوقف على استعجال وصول الإغاثة من بلاد المغرب- إلا أنه بادر بإرسال الهدايا بسرعة قصوى إلى أصحاب القلاع والفقهاء المقربين إلى الشريف عبد الله el jarife Abdalá، وإلى حاكم الجزائر أولوج على، لنيل رضاهم، ولإقناعهم بما يريد. وعلى الرغم من أن النجدة لم تصله، وأنا لا أعتقد أن مسألة إرسالها قد خطرت ببالهم[١٠]، فإنهم لم يكفوا عن بث الآمال الجيدة فى نفسهم. فى تطوان، زعموا أن بعض المتطوعين المسلمين بين التجار والجنود، وسيعبرون إلى البشرات محملين بالأسلحة والذخائر والبضائع الأخرى الضرورية. أما أولوج على فقد قال إنه لا ينتظر سوى قدوم الأربعين سفينة التى أرسلها إليه سيده السلطان التركى من المشرق، لكى يتوجه لاحقًا لإغاثة الموريسكيين على متن تلك السفن بالإضافة إلى أساطيل الجزائر. قام ابن أمية بإذاعة تلك الأخبار بطريقة تزيد كثيراً عن حجمها الحقيقى، لكى يتحمس

---

(١٠) يرى ماركيث بيانويبا أن هناك عوائق كانت تحول دون وصول مساعدات تركية إلى الموريسكيين، وأن السلطات كانت تعلم ذلك، وإن كانت تحدثت عن خطر تركى لأسباب سياسية. انظر "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

المسلمون الثائرون عندما يرون أن السلطان التركى يتولى إنقاذهم، ولكى يتبع ذلك نشوب الثورة بين صفوف من لم يقوموا بها إلى الآن، لعدم وجود جيش من المسيحيين فى البشرات قادر على مهاجتهم؛ كما أفهمهم عدة أمور -كانت صائبة بالفعل- وهى: أن أورخيبا لا يوجد بها سوى أعداد قليلة من الجنود؛ وإن ماركيز بلش لا يعتمد سوى على رأيه ومكانته الشخصية، بعد أن تم تفكيك معسكره، وهروب القدر الأكبر من جنوده الذين كانوا فى حوزته فى تيركى.

فى نهاية الأمر، شرع أهالى البشرات فى إعمار مساكنهم، و فلاحة الحقول عامدين؛ كما باتوا يخرجون فى دوريات حراسة لتمشيط الأراضى، وهو ما كانت قد جرت عليه العادة لدى أسلافهم قبيل فتح تلك المملكة. وبلغ الأمر أنهم أنشأوا سوقًا فى مدينة أوخيخار دى الباثيتى، أمسوا يبيعون فيه الأسلحة، والذخائر، والمؤن، وبضائع أخرى بوفرة كبيرة تضاهى ما يجرى فى مدينة تطوان. حينما أبصر ابن أمية القدر الوفير من الأناس الذين صاروا يفدون إليه من كل صوب وحدب، اعتد بنفسه وغره تلقيبه بملك البشرات؛ وكان لقبًا ذا وقع كريه للغاية على أسماع الرعايا المخلصين لجلالة الملك. فأراد أن يعمد إلى إقامة دولة جديدة، وتعيين القادة ومسئولى الحرب والقائمين على شئون العدالة، حيث نصّب خيرونيمو المالح -حاجب فيريّرة- حاكمًا على سند وادى آش، ونهر المنصورة، وحدود وادى آش وبسطة. أما دييغو لوبيث بن عبو -الذى كان قد برأ من مرضه- فولاه على مناطق بوكيّرة وفيريّرة، كما عيّن ميغيل دى غرانادا شابا حاكمًا على حدود أورخيبا. وقد منح ابن مكنون حكم خيرغال، وبلدتى لوتشار ومارتشينا، وجبال فيلابرِس وغادور، إلى جانب نهر ألمرية. وعيّن الخيرونتيّو والرانداتى على كل من وادى ليكرين، وحدود المنكب وشلوبانية ومطريل، وغيرها من البقاع؛ كما رسّم قادة غيرهم على بقاع أخرى. وقد منحهم ابن أمية شهادات ممهورة باسمه حتى يطيعهم المسلمون، وأمرهم أن يعملوا على نشوب الثورة فى شتى الأرجاء على وجه السرعة. أما من يمتنع عن الامتثال لهم، فعليهم قتله ومصادرة ممتلكاته لصالح مجلسه؛ كما يتعين عليهم حصد خمس الغنائم التى يظفرون بها لتغطية نفقات الحرب.

وعيّن ابن أمية فى عضوية مجلسه كلاً من: السيد إيرناندو الصغير، والدالاى، ومُشَرّف كالديرون Moxarraf Calderón –أحد مواطنى أوخيخار–، وإيرناندو الحبقى Hernando el Habaquí –الذى كان قد توجه خلال تلك الأيام إلى الجبل، لأنه كان قد تم اعتقاله فى وادى آش على خلفية الاشتباه فى قيامه بالثورة؛ أو –كما أخبرنا هو لاحقًا– كان السبب هو توجهه إلى البلاط لمعارضة تنفيذ المرسوم. فى أعقاب إطلاق المأمور القضائى لتلك المدينة سراحه بكفالة، تنامى إلى علمه أنه قد صدر قرار بالقبض عليه من جديد. قام أولئك الرجال كلهم، والكثيرون غيرهم ممن رافقوا ابن أمية، بالدعوة إلى قيام المملكة التى وصفوها بالجديدة والقائمة بفضل الله. لم يتخلف عن ذاك الحشد سوى ابن فرج، الذى كان متهربًا من ابن أمية، خشية أن يأمر ذاك الأخير بشنقه. وهو ما كان ليحدث بالفعل فى حال تمكن ابن أمية من وضع يديه عليه، لأنه أشاع الاضطرابات بين الناس مرات عديدة، وأتى بالكثير من التصرفات التعسفية المخالفة للعرف، رغبةً منه فى أن يضحى مطاعًا بوصفه حاكمًا على المسلمين. وسوف نقص عليكم فيما بعد ما آل إليه حال ذاك الخائن، لكى لا نهمل شيئًا يتعلق بالتاريخ.

آنذاك حشد ابن أمية ما يربو على خمسة آلاف رجل، وتوجه بهم لنشر الثورة فى موضع لا بيثا؛ فاقتاد سائر المقيمين بها إلى البشرات، وقد قُيِّدَت أيدى غالبيتهم قسرًا، لعدم رغبتهم فى القيام بالثورة. بيد أنه لم ينتظر من أجل الهجوم على الحصن، كما أن قائد الحصن لم يخرج منه إلا فى أعقاب تراجع العدو. عندئذ أنهى جمع ما تبقى فى المنازل، وتزود بالكثير من المؤن التى لم يقدر الموريسكيون على حملها، ثم أودعها فى الحصن.

الفصل الحادى عشر

يتناول كيف توجه المالح لإشاعة الثورة فى بلدة فينيانا، وكيف أغاث فرانثيسكو دى مولينا الحصن برجال وادى آش.

فى تلك الأثناء، قام خيرونيمو المالح بالإغارة على بلدة فينيانا. حيث فكر فى احتلال ذاك الحصن، لأنه المعبر الذى تمر به دوريات الحراسة التى تذهب بالمؤونة إلى معسكر ماركيز بلش. فاصطحب معه موريسكيي سند وادى آش، بالإضافة إلى الكثيرين غيرهم من البشرات، وبلغها فى الساعة التى طلع فيها النهار على البلدة. حيث قام بتجميع كافة الأهالى -رجالاً ونساء- محملين بأمتعتهم وتتقدمهم ماشيتهم، وأرسلهم إلى البشرات. لم يتمكن من احتلال الحصن، أو إلحاق الضرر بالمسيحيين. لأنهم لمّا لم يأمنوا على أنفسهم بين جيرانهم، احتشدوا داخل الحصن، وأصبحوا يدافعون عنه؛ فقتلوا وجرحوا بعض المسلمين. كانت إحدى مجموعات الجنود موجودة بالكنيسة -الكائنة بالجوار- لحراسة المؤن التى تفرغها الدوريات المتوجهة صوب وادى آش، ريثما يأتى المقاتلون الذين سيرافقونها ويمضون بها إلى الأمام. إزاء تفوق المسلمين من حيث إمكانية الهجوم عليها، هدموا أحد الحوائط، التى تتيح لهم الدخول إلى الجنود من خلالها على الأقدام فى يسر. ههنا بات من الضرورى أن يهجر رجالنا الكنيسة، ويلجأوا إلى باب مرتفع يفضى إلى الحصن. فما كان من الأعداء - الذين لم يتمكنوا من التغلب عليها- إلا أن أضرموا النيران فى المعبد، ورجعوا إلى الجبال.

كان فرانثيسكو دى مولينا قد تلقى تحذيراً فى وادى آش فى ذاك اليوم نفسه، حول نية المالح فى الإغارة على تلك البلدة. فخرج لإغاثتها يرافقه ثمانمائة رام ولوائين من الفرسان، وظل يقطع الطريق طوال الليل، حتى وصل فى اليوم التالى بعد طلوع النهار. حينما ألفى المسلمين قد غادروا المحل، لم يرغب فى ملاحقتهم، لأنه ظن أنهم يتفوقون عليه بفارق كبير؛ فترك بعض المقاتلين فى الحصن، وتوجه إلى مدينة وادى آش. فى أعقاب ذلك، قام السيد خوان دى أوستريا بإرسال السيد خوان بيريث دى بارغاس لتأمين المدينة -كما ذكرنا آنفًا- على رأس كتيبة من المشاة وعدد من الفرسان. فتولى ذاك الأخير حمايتها على مدار الحرب، كما أنه غادرها فى بعض الأحيان ليشن غارات ناجحة فى ذلك الإقليم.

الفصل الثانى عشر

يتناول اندلاع الثورة فى مواضع غيخار، ودودار، وكينتار؛ وإصدار السيد خوان دى أوستريا أوامر لترحيل أهالى بينوس ومونانشيل إلى غوطة غرناطة.

تقع قرية غيخار على مسافة ثلاثة فراسخ إلى الشرق من مدينة غرناطة. ويبدأ نهر شنيل مسيرته فى المنطقة الكائنة بينها وبين جبل شلير. والقرية مقسمة إلى ثلاثة أحياء، يوجد بأوسطها جبل بُنيت به إحدى القلاع فى قديم الزمن. كما تحيط به الجبال العالية من كل الاتجاهات، فأضحى المحل بالهوة الموجودة بالمنتصف. هناك طريقان شديدا الانحدار والوعورة لبلوغ غيخار من غرناطة: أحدهما يمتد صعودا على الجهة اليمنى مروراً ببلدة بينوس، وهو أقصرهما وأكثرهما وعورة؛ أما الآخر، فيعبر نهر المياه البيضاء على الجهة اليسرى، ويخترق بلدتى دودار وكينتار، ليصعد أعلى الجبل على هيئة متعرجة فى الناحية الشمالية. كانت تلك الأماكن، وباقى المواضع القريبة منها، والكائنة بين الوهاد الجبلية، ترقب الأوضاع وتنتظر ما سيقدم عليه موريسكيو البيّازين لتحذو حذوهم.

هجر بعض الأهالى منازلهم، وتوجهوا للانضمام إلى الثوار فى بداية نشوب الثورة، نظراً لصدور أحكام ضدهم. فى تلك الأرجاء تم صناعة السلالم اللازمة لتسلق أسوار حصن الحمراء -كما أشرنا آنفًا(*)-، كما أن غالبية الرجال الذين جاهروا

(*) انظر الكتاب الرابع، الفصل الأول. (المترجمة)

بعقيدة محمد فى البيّازين كانوا ينتمون إلى تلك البقاع. وكان أولئك هم من تولوا إقناع ابن أمية بالذهاب لنشر الثورة فى تلك المواضع، فما كان منه سوى إرسال بدرو دى مندوثا الحسينى[11] Pedro de Mendoza el Husceni فى تلك الآونة على رأس عدد غفير من الرجال ليشيع بها التمرد.

حينما تنامت تلك الوقائع إلى علم السيد خوان دى أوستريا فى غرناطة، اتخذ إجرائين: كان أولهما هو تولى السيد أنطونيو دى لونا، ومن يرافقه من الرجال، إجلاء الموريسكيين من موناتشيل وبينوس وغيرها من البقاع المجاورة؛ وذلك للحيلولة دون اقتياد المسلمين لهم إلى الجبل -وفقًا لأقوالهم- واصطحابهم إلى ثوبيا Zubia وأوخيخار -وهما موضعان بالغوطة- حيث تراءى له إنهم سيبيتون أكثر أمنًا هناك. أما الأمر الآخر فكان استطلاع جبل غيخار، ليرى إذا ما كان بمقدورنا إقامة نقطة منيعة، وإنشاء معقل به؛ لأن المسلمين كانوا يهبطون من تلك الناحية، ويواصلون مسيرتهم إلى أن يبلغوا موضع ثينيس -الواقع على مسافة فرسخ من غرناطة-، ويحدثون أضرارًا بالغة. ود السيد أنطونيو دى لونا الذهاب لتولى تلك المهمة بذاته؛ وأثناء استكشافه للأماكن، مر باتجاه غيخار فى صحبة الفرسان وثلث قوات المشاة، بيد أنه لم يتدبر أمر الحصن آنذاك. حيث رأى كل من لويس كيخادا والقائد إيرناندو دى أورونيا إنه لا يمكن مد يد العون أو إغاثته دون تكبد مشقة كبيرة، نظرًا لوعورة الطريق. وإن مغبة القيام بذاك الأمر، والمعوقات التى ستواجههم تفوق النفع الذى سيعود عليهم؛ وهكذا رجعوا فى ذات اليوم إلى غرناطة.

قام السيد أنطونيو دى لونا بحشد أهالى هذين الموضعين فى الكنائس، وقد لقى شغبًا وفوضى ليست بالقليلة من قبل القادة والجنود أثناء اضطلاعه بذاك الأمر. لأنهم حملوا الموريسكيين والموريسكيات على إيداع ممتلكاتهم المنقولة فى منزلين كبيرين،

---

(١١) من الشائع بين الموريسكيين اختلاط الأسماء العربية بالإسبانية، أحيانًا يكون الاسم إسبانيًا واللقب العائلى عربيا، وأحيانًا يكون العكس. (المراجع)

بحجة أنها ستصير آمنة بصورة أفضل على ذاك النحو إبان مغادرتهم للمكان. فيما بعد، اصطحبوهم إلى الغوطة، دون أن يسمحوا لهم بأخذها معهم. أثناء قيامهم بتقسيم الفيء فيما بينهم، قام الكثيرون منهم بإخفاء الفتيات والغلمان، واتخذوهم عبيداً وإماءً لهم. فقد كان الجشع داءً مستفحلاً لدى رجالنا فى ذاك العصر، فكانوا كلما وقعت أعينهم على شىء -سواء كان لأصدقاء أم أعداء- يرغبون فى الاستيلاء عليه بأسره. وكان يحزنهم أن الثورة لم تندلع فى بقاع المملكة بأسرها، ليضحى لديهم ما يسرقون ومن يأسرون[١٢]. فى أعقاب مغادرة رجالنا لغيخار، هبط المسلمون الذين كانوا قد رحلوا إلى جبل شلير ليسكنوا منازلهم. كما أمر ابن أمية بدرو دى مندوثا أن يقتحم البلدة، ويتولى تحصينها وتأمينها؛ وهو ما قام به، إلى أن أغار عليه السيد خوان دى أوستريا، وألحق به الهزيمة كما سنروى فى موضع لاحق.

(١٢) لا يستطيع مارمول أن يتغافل عن سلبيات الجنود المسيحيين فى أثناء الحرب ضد الموريسكيين. (المراجع)

الفصل الثالث عشر

يتناول استيلاء المسلمين على إحدى الدوريات التى كانت متوجهة من غرناطة إلى وادى آش، وكيفية خروج فرانثيسكو دى مولينا للإغارة عليهم، وهزيمته لهم، واستردادها منهم.

فى نفس ذاك الوقت، خرج من البشرات مائتا مسلم، وهبطوا الجبل المشرف على نهر المياه البيضاء، ثم توجهوا ليعبروا أعلى بلدة لا بيثا، وعبر بقعة فى الجبل ما بين حصن اللوز ووادى آش -وتدعى البونتال el Puntal- وصلوا إلى نزل تيخادا Tejada. وهناك أعدوا كميناً عند بعض الوهاد الموجودة على مقربة من المكان، فى انتظار عبور أى دورية تابعة للمسيحيين؛ حيث كان ذاك المحل على الطريق الملكى الذى يتجه من وادى أورتونا إلى وادى آش. تصادف مرور فيليثيانو تشاكون برفقة سرية من الجنود، ومعهم أربعين صندوقًا محملاً بالمؤن، بالإضافة إلى امرأة متزوجة حديثًا ومعها كل جهاز العرس. فأغار الموريسكيون عليهم، وقتلوا ثمانية جنود، بينما فر الباقون؛ ثم استولوا على ما كان بحوزتهم من متاع، وعادوا أدراجهم إلى الجبل.

ورد تنبيه حول ذاك الأمر إلى وادى آش. فامتطى فرانثيسكو دى مولينا جواده، وخرج مع نفر من المواطنين الذين انضموا إليه للبحث عن المسلمين، تاركًا أوامر لسلاحى الفرسان والمشاة لكى يلحقا به. ومضى يتتبع آثارهم فى الدرب الذى سلكوه، حتى وصل إليهم على مقربة من لا بيثا، عندما كانوا يتهيأون لارتقاء الجبل. على الرغم من عدم وجود أكثر من ثلاثة عشر فارسًا مع السيد فرانثيسكو - حيث لم يتسن للباقين اللحاق به- تراءى له أنه قد يستطيع تعطيلهم بمن معه من الرجال، ريثما تصل

القوات دفعة واحدة. فأطلق العنان لفرسه، وشرع ينادى اسمى سانتياغو والقديسة باربرا المباركين –وكانا شفيعيه–، ثم بادر بالهجوم عليهم فى حماس. لكن كان لابد له من استشعار خيبة الأمل، حيث إنه كان يظن أن رفاقه سيتبعوه؛ وحينما أدار رأسه رأى أنه لا يوجد إلى جواره سوى ثلاثة أفراد: عالم اللاهوت فونسيكا، وإيرنان بايِّى دى بالاثيوس ، وخوان ديل كاستيّو Juan del Castillo –وكلهم من مواطنى وادى آش. فقاتلوا كما يفعل الرجال الشرفاء، وجُرِحَ ثلاثتهم، وقتل المسلمون اثنين من خيولهم. وكادوا يقتلونهم هم لولا فرانثيسكو دى مولينا – الذى تسلح بشتى الأسلحة، وخاض فى وسط كتيبة المسلمين مرتين–، حيث رجع إليهم وأنقذهم. وباتوا يساعدون بعضهم بعضًا فى شجاعة بالغة، فأعاقوا الأعداء، وطعنوا بعضهم بالرماح؛ كما أخروهم إلى أن انضم إليهم الفرسان المتأخرون، والرجال الذين لم يرغبوا فى المشاركة فى الهجوم. فشنوا عليهم هجمات عديدة، ونجحوا فى اختراق كتيبة المسلمين، وألحقوا بهم الهزيمة، ودفعوهم إلى الهرب. مات فى ذاك اليوم ستة وعشرون من المسلمين، وجُرِحَ الكثيرون؛ كما فقدوا أحد الألوية، والمتاع الذى كان بحوزتهم ويضم الغنائم كلها. بينما لم يكن هناك موتى بين صفوف المسيحيين. فى ذاك المساء، عاد الرجال إلى مدينة وادى آش فى أعقاب تحقيق ذاك الانتصار، وتم استقبالهم فى سرور.

الفصل الرابع عشر

يتناول كيفية تعرض قائد عام قوات قشتالة لعاصفة، أثناء مجيئه من إيطاليا على رأس أربع وعشرين سفينة محملة بجنود المشاة، ورسوه فى ميناء بالاموس.

فى أثناء وقوع تلك الأحداث فى مملكة غرناطة، كان قائد قوات قشتالة قد قام -امتثالاً لأمر جلالة الملك- بتحميل جنود المشاة الإسبان، الموجودين بوحدات الجيش فى نابولى، على متن السفن بسرعة كبيرة. وشرع فى الإبحار غربًا برفقة أربع وعشرين سفينة، حتى وصل ميناء مدينة مارسيليا، التى تقع على سواحل فرنسا. رغم اعتدال الطقس هناك فإنه مع حلول الليل، بدأت قوة رياح ناربونا تشتد، وهبت عاصفة بحرية شديدة، مصحوبة برياح عاتية، جعلت السفن تبحر منفردة، كل منها وفقًا لتعليمات قائدها.

ارتطمت سفينة استيفانو دى مار Estéfano de Mar -وهو من أهالى جنوة- فى منتصف الخليج بسفينة أخرى من أحد الجوانب؛ فتم انقاذ السفينة التى تلقت الصدمة؛ بينما انفلقت تلك الأخرى، وهوت إلى الأعماق. وقد فُقِدَ سائر الرجال الذين كانوا على متن تلك السفينة، وثلاث سفن أخرى انقلبت على أعقابها. وصلت سفن أخرى إلى ميناء سردينيا، الذى بلغه السيد ألبارو باثان Álvaro Bazán ماركيز سانتا كروث فى أعقاب انقضاء العاصفة. وقد صحبته السفن التى تأتمر بأمره فى نابولى، والتى كان قد أبقى عليها لتأمين ساحل إيطاليا. فما كان منه إلا أن قام بإصلاح خمس سفن كانت قد تحطمت من جراء العاصفة على وجه السرعة، وحمل على متنها، ومتن السفن التابعة له،

أكثر عدد من الجنود تسنى له؛ وأبحر عائداً إلى بالاموس Palamós. هناك ألفى القائد العام على متن بارجته التى تقود الأسطول، وتسع سفن أخرى كانت قد تبعته وسلكت مسلكه.

استمرت تلك العاصفة على مدار ثلاثة أيام دونما توقف. وبات من الضرورى التخفيف من الحمولة، حتى أن الجنود أمسوا يقذفون بالأسلحة والثياب إلى البحر. وقد وصلت بارجة قائد الأسطول إلى بالاموس مهشمة للغاية، حتى أن الأتراك والمسلمين المحكوم عليهم بالتجديف تجرأوا وأرادوا الانقلاب عليها. بيد أن رجالنا شعروا بهم، وأمر القائد العام بتنفيذ الإعدام فى أشد المذنبين. ثم زود الجنود بما يحتاجون إليه، وانطلق ليعود باتجاه الغرب بأسرع وأفضل كيفية. أما ماركيز سانتا كروث، فقد ترك لديه جنود المشاة فى وحدات الجيش الإسبانى، الذين جلبهم على متن السفن التابعة له؛ وعاد أدراجه إلى الشرق. أحضر القائد العام فى تلك السفن اثنتى عشرة كتيبة من الجنود القدامى: عشرة منها من وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى(١٣)، وواحدة من القوات التابعة لبيامونتى Piamonte، وأخرى من تلك التابعة للومبارديا Lombardía.

كان قادة وحدات الجيش الإسبانى القادمة من نابولى هم: السيد بدرو دى باديّا Pedro de Padilla، والسيد ألونسو دى لوثون Alonso de Luzón، وبدرو بيرموديث دى سانتيس Pedro Bermídez de Santis، وروى فرانكو دى بويترون Ruy Franco de Buitrón، وبدرو راميريث دى أريّانا Pedro Ramírez de Arellano، وأنطونيو خواريث Antonio Juírez، والقائد مارتينيث Martínez، وألونسو بيلتران دى لا بينيا Alonso Beltrán de la Peña، وماركيز اسبيخو Espejo، والقائد أوريخون Orejón. وصل سبعة من أولئك القادة العشرة إلى إسبانيا، لأن آخر اثنين مكثا فى نابولى، وأرسلا نيابةً عنهما معاونيهما. أما القائد مارتينيث فقد غرق فى البحر،

---

(١٣) إحضار وحدات من الجيش الإسبانى الموجود فى إيطاليا لمواجهة الموريسكيين يعنى أن ثورة الموريسكيين كانت تمثل خطراً حقيقياً. (المراجع)

وتولى كارلوس دى أنتيَـون Carlos de Antillón رئاسة كتيبتـه، وكان يتولى قيادة بعض وحدات الجيش الإسبانى. ترأس القـائد مـارتين دى أبيـلا Martín de Ávila كتيبة القـوات التـابعة لبيامونتى، أما تـلك التابعة للومبارديًا فقـد قادها السيد لويس غايتان Luis Gaitán.

حضر بالإضافة إلى أولئك الرجال العديد من الفرسان والجنود المتطوعين، الذين قدموا على نفقتهم الخاصة لمجرد المشاركة فى تلك الحملة. وقد وصل هؤلاء إلى البر فى حالة شديدة من العرى والتجرد من السلاح، حتى إنه كان من الضرورى للغاية شيء من الوقت والهمة من أجل إصلاح هيئتهم؛ وإعادة تزويد الكتائب بالرجال، والأسلحة، والملابس. حينما تم تنبيه ماركيز بلش إلى مجيء أولئك الرجال، والهيئة التى قدموا عليها، كان لديه الوقت لإرسال كتاب إلى صاحب الجلالة، يتضرع إليه فيه أن يأمر بمنحه إياهم؛ كما تطوع أن يأخذ على عاتقه وضع نهاية لمسألة الثورة بمساعدة أولئك الرجال، إلى جانب من فى حوزته من الجنود فى بيرخا. فبعث إليه جلالة الملك برسالة تحوى أمرًا، مفاده أن يدع القائد العام تلك القوات بأكملها على البر، بمجرد رسوه فى بلدة أدرا، لكى يضمها ماركيز بلش إلى قواته. بيد أن ذاك القرار لم يدخل حيز التنفيذ، لأن القائد العام وصل إلى شاطئ أدرا فى أول أيام شهر مايو، ولم يمكث بها سوى ساعة واحدة؛ ثم عاد أدراجه باتجاه المنكب وبلش، حيث اضطلع بمهمة جبل فريخيليانا المنيع، وذلك على النحو الذى سنسرده حينما نتعرض لتلك الحادثة. فلندعه يبحر الآن، ولنتابع التحركات التى كانت تجرى فى تلك الأيام فى جبل منتميس.

الفصل الخامس عشر

يتناول وصفًا لجبل منتميس، وكيفية شروع الموريسكيين التابعين لكانييس دى أُنْيتونو فى إشاعة الثورة فى الأراضى، ومحاصرة الحصن.

يقع جبل منتميس عند أطراف مدينة بلش، وهو -كما ذكرنا آنفًا- يُعَد بمثابة فرع ينفصل عن الجبل الأكبر إلى الأسفل من موانئ صالحة، ليمضى فى مسيرته صوب البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ طوله، منذ بدايته وحتى وصوله إلى البحر، ثمانية فراسخ؛ أما عرضه فستة فراسخ -تزيد أو تنقص بعض الشىء فى بعض الأجزاء. تتسم تلك الأراضى كلها بالوعورة الشديدة، على الرغم من خصوبتها؛ كما تكثر بها الغيلات. وبها وفرة من عيون المياه الباردة والمفيدة للصحة، ينبع منها العديد من الجداول ذات المياه الصافية، التى تنساب لتشكل مسارها ما بين صخور وأحجار تلك الأودية. فيقوم قاطنو تلك الأراضى باستخراج المياه عن طريق إقامة السواقى على سفوح الجبال، ليرووا حقولهم ومزارعهم ورعاية الأغنام مزدهرة فى تلك الجبال، نظرًا لتمتعها بمراع جميلة صيفًا وشتاء مع حلول الثلوج والصقيع، ترتع الماشية على الأطراف الأخرى من مدينة بلش وهى ذات مساحة شاسعة، وطقسها شديد الاعتدال. حيث يحدها من الناحية الغربية شرق مالقة، ومن المشرق أراضى المنكب. إلى الشمال توجد حدود مدينة الحامة وبا[illegible] أرشيذونة، وإلى الجنوب البحر الأبيض المتوسط المواجه للسواحل الأيبيرية.

تنتشر الكرمات فى سائر أرجاء الجبل، فيصنع المواطنون من العنب الزبيب المجفف والنبيذ، -الذى [illegible] لتجار الشمال، ممن يفدون إلى برج ساحل بلش فى كل

عام لتعبئة سفنهم. حيث يحملونه إلى بريطانيا، وإنجلترا، وفلانديس؛ ومنها يعبرون به إلى ألمانيا والنرويج، وبقاع أخرى. بالإضافة إلى ذلك، فإن محاصيل الحنطة واللوز تعود عليهم بالكثير من الأموال؛ كما إنهم يحصدون قدرًا وافرًا من القمح يكفى لإعاشتهم. أما صناعة الحرير، فهى متوافرة بكميات كبيرة وعلى درجة عالية من الجودة، حتى إنها تضاهى أجود ما يفد إلى جمرك الحرير(*) فى غرناطة. تعلو المنطقة سماء شديدة الصفاء، وهواءها عليل، يبعث جوًا من البهجة الشديدة، يجعل من يولدون بها سريعى الحركة، وأشداء، وذوى همة عالية. حتى أن الملوك المسلمين كانوا يعدونهم قديمًا أشجع الرجال، وأكثرهم نشاطًا، وأشدهم تأثيرًا فى مملكة غرناطة؛ وكانوا يعتمدون عليهم فى كافة المناسبات المهمة.

تضم تلك المنطقة اثنتين وعشرين قرية آهلة بالسكان الأثرياء. وأسماء تلك الأماكن -بدءًا من الجهة المقابلة للبحر- هى كالتالى: توروكس Torrox، ولاوتين Lautin، وبيريانا، والغاروبو Algarrobo، وسهيلة Cuheila، وأريناس Arenas، ومنتميس، ودايمالوس Daimalos، ونيرخا Nerja، وكومبيتا Competa، وفريخيليانا، وسايالونغا Sayalonga، وسالاريس، وكورومبيلا Curumbila، وباتارخيكس Batarjix، وأرتشيس Arches، وكانييس دى البيد Canilles de Albaide، وبن إسكالار Benesscaler، وسِيديّا Sedella، وروبيتى، وكانِييس دى أثّيتونو Canilles de Aceituno، وألكاوثين Alcaucín.

توجد قلعة مهمة فى كانِييس دى أثّيتونو. وكان ماركيز قمارش -الذى تتبعه تلك القلعة- قد رأس عليها رجلاً يدعى غونثالو دى كاركامو Gonzalo de Cárcamo. وهو شخص حكيم، وعلى قدر كبير من الثقة؛ كما إنه من النبلاء، حيث ينحدر من

(*) سوق عام أو محل لتحصيل الجمارك، كان يرتاده المزارعون قديمًا فى شتى أنحاء مملكة غرناطة، لدفع الضرائب التى يقررها الملوك المسلمون على إنتاجهم من الحرير. Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo I, pag. 86. (المترجمة)

آل كاركامو في قرطبة. حينما تم تنبيهه إلى اندلاع الثورة في البشرات، ولّما كان الحصن في حالة سيئة ويحتاج إلى إصلاحات -حيث كانت أسواره مملوءة بالثغرات في العديد من الأماكن-؛ كتب إلى ماركيز قمارش في ذاك الصدد. وريثما يصله الرجال والأوامر للقيام بترميمه، أودع بداخله المسيحيين المقيمين بالبلدة ونساءهم وبنيهم. بعث إليه الماركيز بستين جندياً، وكمية من الذخائر؛ كما أصدر إليه أوامر بأن يحمل الموريسكيين على إصلاح الأسوار. وهو ما قاموا به: حيث أمدوا السيد غونثالو بالعمال، والبعير لجلب المواد، على نسق مكّنه من صيانته خلال فترة وجيزة. ولم تقابله أي عوائق على الإطلاق، لأنه كان بين هؤلاء الرجال الجبليين الكثير من الأشخاص ذوي العقل الراجح، الذين أضمروا مخططهم، وأظهروا خضوعهم لتنفيذ المرسوم؛ على الرغم من أن مسألة اللغة كانت متعبة للغاية بالنسبة إليهم.

بينما الأهالي يظهرون المسالمة والهدوء، قدم -ربما لإثارة الاضطرابات بينهم- أحد المسلمين الذين استطاعوا الفرار من غواخاراس، وكان يدعى المؤذن Almueden؛ وكانت امرأته أسيرة لدى رجل مسيحي من أهالي كانييس دي أثّيتونو. رغبةً منه في رؤيتها والسعي لانقاذها، استطاع التوجه مع جماعة من المسلمين -بفضل تدخل نفر من أصدقائه- إلى طاحونة تقع على مقربة من المكان، على طريق سِيدياً، كانت مخفية عن الأنظار عند المنطقة الجبلية. توجه لرؤيته أهالي تلك البقاع: بعضهم كان من معارفه، والبعض الآخر كان يود معرفة ما يجري في البشرات. عندما رآهم المسلم متعلقين بالأخبار -عندما حان أوان مناقشة شئون الثورة- أقنعهم بدرجة كبيرة من أجل القيام بها. وعرض عليهم أن يرتب الأمر مع ابن أمية لكي يرسل لهم قوات إغاثة، أو أن يُحضِره هو بنفسه إذا ما دعت الحاجة لذلك. وأخذ يقص عليهم روايات مختلقة حول وقائع ناجحة؛ ومصارع ضخمة بين صفوف المسيحيين، بلغت مبلغ من قتل من المسلمين في بالور وغيرها من الأماكن؛ وعمليات إنقاذ كبرى قادمة من بلاد المغرب. فأثار حمية أولئك الرجال، وهيجهم إلى درجة لم يعودوا يطيقون معها الانتظار إلى أن تحين ساعة الانضمام إلى صفوف الثوار.

كان هناك موريسكي واحد يشغل منصب نائب في مجلس بلدية كانييس دى أثيتونو، يدعى لويس مينديث Luis Méndez، كان قد نصحهم -ما بين الخوف والرجاء- ألا يقدموا على الثورة تحت أى ظرف من الظروف طالما بقت البيّازين قائمة على حالها، لأن ذلك يعنى فناءهم. لكن على الرغم من موافقتهم إياه فى الرأى، لم يكف الصبيان عن إثارة القلاقل. كان برفقة المؤذن أحد الثوار الجبليين من أهالى سِيديّاً، يدعى أندريس الخُريران Andrés el Xorairan. وقد رغب كلاهما فى القيام بعملية سطو قبل مغادرة المحل، فباتا يسألان عن موضع يؤمانه لتنفيذ مقصدهما والعودة سالمين. فأخبرهم أهالى كانييس أن هناك صاحب خان موسر ويمتلك أموالاً كثيرة فى نزل بدرو ميادو Pedro Mellado، الكائن أسفل ميناء صالحة. ولكن من الضرورى أن يذهب إلى هناك عدد كبير من الرجال، لأن إحدى كتائب الجنود التابعة لبلش تتجول فى تلك المنطقة، ومن المحتمل أن يصطدموا بها. ثم عرضوا عليهما أن يقوموا بمرافقتهما هم وبعض أهالى سِيديّا ومواضع أخرى مجاورة، بعد أن اتفقوا أنه لن يدخل النزل سوى الغرباء فحسب، فاحتشد ما يربو على ستين رجلاً مسلحين بالأقواس الفولاذية والبنادق.

فى يوم السبت الموافق الثالث والعشرين من شهر إبريل عام ١٥٦٩، توجه الجمع لنصب كمين عند بعض الروابى التى لا تبعد كثيراً عن النزل. عقب حلول مساء يوم الأحد التالى، تراءى للرجل أن الفرصة باتت سانحة لتنفيذ الهجوم. فخلّف وراءه أهالى المناطق الجبلية لمراقبة الأوضاع، وهبط الخُريران مع عشرين من الثوار الجبليين الغرباء للإغارة على الخان. فألفى الأبواب مفتوحة، وبدرو رويث غيريّرو Pedro Ruiz Guerrero -كان ذاك هو اسم صاحب الخان- وجندى آخر يدعى دومينغو لوثيرو Domingo Lucero، جالسين على إحدى المصاطب وكل واحد منهما حاملاً بندقية فى يده. فظنوا أن الكتيبة بأسرها موجودة داخل النزل، فداروا على أعقابهم لمغادرة الخان، مما أعطى الفرصة للمسيحيين للصعود إلى الربوة والتحصن بها، حاملين معهما امرأة صاحب الخان وابنته الصغيرة، حيث لم يتمكنا من إيواء الباقين. تأخر المسلمون فى الدخول فيما بعد، وتبعهم نفر من أهالى كانييس دى أثيتونو، فأضرموا النيران فى النزل،

وهددوا أصحابه بإحراقهم أحياءً إذا لم يعطوهم النقود التى فى حوزتهم. فهبطت زوجة صاحب الخان من مكمنها -خوفًا من الموت- وأعطتهم صندوقًا صغيرًا يحوى مائة دوقية. حينما أضحت النقود فى حيازة الخُريران، قبض على السيدة، وقال للرجلين إنهم سيجهزون عليها إذا لم يسلماهم الأسلحة أيضًا. فما كان من المرأة إلا أن طلبتها من زوجها وهى تذرف الدمع الغزير، لكنه رفض إعطاءها إياهم، ورد عليها إنه لابد له من الموت وهو يحمل الأسلحة بين ذراعيه.

فى غمار ذاك الحوار، وصلت إلى المحل كتيبة غاسبار ألونسو Gaspar Alonso -وهو أحد أهالى بلش- وكانت تتولى تأمين ذاك المعبر. فشرعوا فى إطلاق نيران بعض البنادق على المسلمين الذين يتولون المراقبة، واشتبكوا معهم فى مناوشات خفيفة، لم تفلح سوى فى إخراج من كانوا بداخل الخان إلى الخارج، فى أعقاب استيلائهم على ما كان فيه. فى ذاك الوقت، سنحت الفرصة للرجلين المسيحيين للخروج إلى الحقول: فاقتاد الجندى الفتاة وخبأها خلف بعض الشجيرات، بينما لاذ هو بالفرار بأفضل كيفية سنحت له. كان من الممكن أن يسلك صاحب النزل ذات النهج، بيد أنه سمع زوجته تصرخ أثناء إيذاء أعداء الرب لها؛ ومع رغبته فى الوقوف إلى جوارها قتلوه هو أيضًا. حينما لم يبق لديهم ما يقومون به، تراجع الثوار إلى الجبل، مخلّفين وراءهم تسعة قتلى فى الخان . كان المواطن المالقى حامل الإجازة بدرو غيرّيرا Pedro Guerrera يشغل منصب قاضى القضاة فى مدينة بلش. حينما تنامى إلى علمه ما اقترفه الثوار الجبليون فى النزل، طلب التقصى عن ذاك الجرم. وعندما وجد الذنب يقع على عاتق الكثير من أهالى كانييس دى أثّيتونو، وسِيديًا، وسالاريس، وكورومبيلا، حرك دعوى ضدهم. كما أفاد من القرار الذى صدر لصالح قضاة المحكمة العليا فى غرناطة، والذى يقضى بتمكين محاكم العدل الأميرية من الدخول إلى الضيعات واعتقال المجرمين. صمم السيد بدرو على الذهاب لإلقاء القبض على مواطنى كانييس دى أثّيتونو المذنبين. واصطحب معه القائد لويس دى باث Luis de Paz، وفرسان كتيبته، والكثير من الرجال الآخرين من المدينة؛ وتوجه صوب البلدة، ودلف إليها فى الصباح الباكر. وذلك دون أن ينبه قائد الحصن غونثالو دى كاركامو -وكان أيضًا يشغل منصب قاض عام- إلى ما يزمع القيام به.

وردت تنبيهات إلى غرناطة حول إرسال ابن أمية سبعة آلاف مسلم إلى الغرب، لتدعيم جبل منتميس، والشرقية، وهوة مالقة؛ ولنشر الثورة فى سائر تلك البلدان. وإنه قد أذاع نبأ تسلمه خطابات من أولوج على -والى الباب العالى على الجزائر- يعده فيها بالمجيء لإنقاذه على وجه السرعة. حينما أدرك السيد خوان دى أوستريا أنه لابد لابن أمية من السعى لاحتلال إحدى البقاع الساحلية، حتى يتسنى له استقبال مراكب الأتراك، كتب إلى مدينة بلش حتى تبيت متأهبةً لذاك الأمر؛ لأن ذلك الموضع ملائم للمسعى الذى يطمح العدو إلى تحقيقه. وبناءً على ذلك، قام المجمع الديرانى باتخاذ الإجراءات اللازمة فى ذاك الصدد، مع أصحاب القلاع التى تقع فى الحيز التابع له. فبعث خطابًا إلى غونثالو دى كاركامو خصيصًا، آمرًا إياه بوضع اثنى عشر رجلاً على قمة ربوة مرتفعة تقع بجوار قلعة منتميس، يمكن للمرء منها كشف المدينة وحصن كانييس دى أثّيتونو، على أن يقوموا بدوريات ليلاً ونهارًا. وإنه فى حال قدوم مسلمين لمحاصرة القلعة، أو إذا ما علم بدخولهم إلى تلك الناحية، فعليه إرسال ثلاث إشارات دخانية من برج اليمين(*) -إذا ما كان الوقت نهارًا-، أو إشعال ثلاث شعلات فى ذاك البرج أثناء الليل. وحينما تجيبه الدورية الموجودة على الربوة، فليدرك أن المدينة قد تلقت تحذيرًا من أجل إرسال قوات لإغاثته. فإذا كانت أعداد المسلمين غفيرة، فليرسل العديد من الإشارات الدخانية، أو ليُلقِ الكثير من المشاعل المشتعلة إلى الأسفل. وليفهم أنه يتعين عليه سلك النهج ذاته حيال معرفته باندلاع الثورة فى الأراضى. وقد أمر السيد غونثالو بنفسه الموريسكيين أن يرسلوا دوريات حراسة حول المكان فى كل ليلة، وأن ينبهوه إذا ما شهدوا مقدم حشد من الأفراد. فقام أولئك بتنفيذ ما طُلِبَ منهم بمنتهى النشاط، بعد أن أفهموهم إنه يؤسفهم مجيء أناس غرباء لإثارة القلاقل بينهم.

(*) أكثر أجزاء الحصن مناعةً، وفيه يقسم القائد المعين على الإخلاص الدائم، والاستبسال فى الدفاع عنه إبان توليه منصبه. Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II, pag. 1999. (المترجمة)

حينئذ وصل بدرو غِيرًا مع ما يزيد على ستمائة من الرجال فى الساعة التى ذكرناها آنفًا، وكان ينتوى محاصرة المكان، والدخول للقيام بما يريد من اعتقالات. التقى جنود الطليعة بكتيبة الحراسة التى شكّلها الموريسكيون، وكانت بمحاذاة مفرق طرق بين الطريقين المفضيين إلى بلش وغرناطة؛ فظنوا سوءًا بتلك المأمورية، فهجموا عليهم من دون تريث، وجرحوا واحدًا منهم، وحملوا الباقين على الهرب. وما كان الأمر لينتهى عند ذاك القدر الضئيل، لولا الجهود المضنية التى بذلها كل من قاضى القضاة، والقائد لويس دى باث، وبيلتران دى أنديًا Beltrán de Andía –النائب بمجلس تلك المدينة– لإيقاف الناس؛ فكان من المؤكد أن يقدموا على تدمير المكان وسلبه، نظرًا لكم الغضب الذى كان يعتمل فى نفوسهم. حينما أحس القاضى بالهجوم المفاجئ؛ تأهب وأشهر السلاح مع الرجال القلائل الذين كانوا بصحبته فى الحصن، بعد أن اعتقد أن هناك مسلمين غرباء فى الأراضى. فلمّا أدرك أنهم القائمون على شئون العدالة فى بلش، سعى لتهدئة الأجواء بالبلدة، حيث طالب قاضى القضاة ألا يدلف إلى الداخل، أو يتعدى على نطاق سلطة ماركيز قمارش، أو يثير الفوضى بين الأهالى الهادئين. وأظهر له اعتراضات كثيرة حول ذلك الأمر، بيد أن كل ذلك لم يفلح فى الحيلولة دون دخول القاضى برفقة بعض الرجال، واعتقاله لثمانية من الموريسكيين، واصطحابه لهم عند رجوعه إلى بلش. حيث قام بإخضاعهم لتعذيب قاس من أجل التحقيق معهم، وقد أظهرت اعترافاتهم تورط عدد كبير من المذنبين – سواء من كانييّس أو من مواضع جبلية أخرى؛ فأمر باعتقال بعضهم وباشر المحاكمة.

شرع السيد بدرو فى تنفيذ العقوبة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو. فبعث مذكرة قضائية بالحكم إلى قاضى كانييس دى أثّيتونو، طالبًا منه إلقاء القبض على أربعة من الموريسكيين ثبت تورطهم فى الأمر، وتسليمهم إلى مواطن بلش السيد ألونسو غونثاليث إنريكيث Alonso González Enríquez، الذى توجه لاحضارهم برفقة أربعين جنديًا من فصيلته؛ فقام باعتقالهم وتسليمهم. كان أحد أولئك الرجال هو الموريسكى نائب مجلس البلدية المدعو لويس مينديث، الذى ذكرنا آنفًا حضوره اجتماع الطاحونة؛

بالإضافة إلى شيوخ أخرين، انتاب الأهالى كلهم الحزن الشديد لسجنهم؛ حتى أن بعضهم أقدم على استدعاء رجال ليخرجوا لملاقاتهم وسلبهم من الطريق. بيد أن قائد الكتيبة بات يحث الخطى، حتى غادر بهم تلك الجبال قبل أن يصل الآخرون لتنفيذ مأربهم.

أسفرت تلك الاعتقالات عن إشاعة الاضطراب فى الأراضى. فى اليوم التالى الموافق الاثنين، أثناء قدوم جندى من ناحية مدينة بلش حاملاً بندقيته على كتفه، أطلقوا عليه سهمًا من بعض الشجيرات، فاخترق السهم طرفى معطفه. وقد انتهى الأمر بخروج موريسكيين من الذين ثاروا بالفعل إلى ذاك الممر، لانتظار قدوم أى مسيحى ضال ممن يروحون ويغدون من بلش وإليها، لكى يجهزا عليه، ويسلباه بندقيته من أجل أن يتسلح بها أحدهما. بيد أن الأمر لم يكن كما يحسبان، لأن الجندى تصدى لهما، وعبر من خلالهما دون أن يضايقاه؛ ثم ذهب لتنبيه غونثالو دى كاركامو إلى الأمر. فما كان من القائد، الذى أراد أن يعلم إذا ما كان هناك أشرار يعيشون فى الأراضى، إلا أن أرسل قائد إحدى الفصائل –ويدعى مارتين نونيث Martín Núñez– برفقة أربعة عشر رام؛ آمرًا إياه ألا يبتعد كثيرًا، ليمنح نفسه فرصة التراجع إلى الحصن فى الوقت المناسب إذا ما دعت الحاجة لذلك.

توجه الجنود للانقضاض على شاب موريسكى كان مضجعًا أسفل شجرة زيتون وسيفه فى يده. حينما رآهم مقبلين نحوه نهض، وبادر بالهرب فتسلق أعلى رابية يطلقون عليها مبارك الأحواز Embarc Alahauyz، وهو يصرخ باللغة العربية ويقول: "أغيثونى أيها البواسل!". فى أعقاب ذلك، خرج من منخفض تحت مظلة ما يربو على مائتى مسلم يتقدمهم الخُريران وقائد آخر اسمه ابن عبد الله Aben Audalla، رافعين رايةً جديدةً من حرير التفتاه الملون. فهجموا على رجالنا، ولاحقوهم حتى البلدة. نجا قائد الفصيلة ومن تبعه من الرجال، حيث لجأوا إلى الحصن عبر شعاب جبلية وسبل رعاة كان لهم دراية بها؛ بينما قتل أربعة مسيحيون سلكوا طريقًا مغايرًا. إزاء اقتحام

المسلمين للشوارع دفعةً واحدةً، شرعت الموريسكيات فى البكاء والعويل، عندما قال لهم الثوار الجبليون أن يتركن منازلهن ويسرن صوب الجبل؛ فدافعت الكثير من الموريسكيات عن أنفسهن، وأخبرن الثوار أن يدعنهن لحالهن، لأنهن لا يرغبن فى الثورة على الحكم أو الذهاب إلى أى موضع آخر. فى تلك الآونة، سنحت الفرصة لصاحب القلعة لكى يقوم بتجميع المواطنين المسيحيين الموجودين خارج الحصن، وكان من بينهم بعض العائلات الموريسكية التى أتت للاحتماء به؛ فطرد عشرين عاملاً كانوا يقومون بإصلاح الأسوار، واتخذ وضعية الدفاع.

أدرك السيد غونثالو أن ذاك الانقلاب ليس أمرًا مدبرًا بين كافة الأهالى. وأن الجزء الأكبر منهم يجهل الأمر، باستثناء المعتدين الذين بادروا بالقيام به فى أعقاب انضمامهم إلى أولئك الرجال الضالين. لأنه لو كان الأمر بخلاف ذلك، لكان بمقدور الأهالى القضاء على قائد الفصيلة ومن معه من الجنود وهم فى مأمن، وتجريدهم من أسلحتهم، حينما دخلوا فارين إلى شوارع البلدة، وقد أعياهم التعب وتقطعت أنفاسهم. وهم لم يكتفوا بعدم القيام بذلك فحسب، بل إنهم عاونوا الجنود، ووقفوا إلى جوارهم حتى إيداعهم فى الحصن. لم تكن البلدة قد أعلنت بأسرها عن اندلاع الثورة، حينما ظهرت فى ساحة البلدة راية من حرير التفتاة الملون، وقد فقدت رونقها لقدمها، وعليها أقمار خضراء ضخمة. وقد عُرِفَ لاحقًا أنها كانت محفوظة لدى فرانثيسكو دى روخاس Francisco de Rojas، وهو موريسكى من أهالى البلدة، وترجع ملكيتها إلى أسلافه منذ عهد المسلمين؛ وكانوا قد رفعوها فى أثناء المعارك التى دارت فى منطقة رُندة الجبلية.

فى الوقت ذاته ظهر لواء آخر أبيض اللون، تولى الثوار وضعه على حجر مرتفع يعلو البلدة من ناحية سيديًا، كانوا يطلقون عليه حجر العُقَاب Haxar el Aocab؛ لكى يقوموا من ذاك الموضع بتنبيه الثوار لدى رؤيتهم قدوم رجال من بلش. وقد أقدم كافة الغلمان والجنود، فى شجاعة متناهية، على وضع أطراف رداءات الموريسكيات على

رؤوسهم، وخمر بيضاء حول أجسادهم، لكى يظهروا كالأتراك. كما أرسلوا النساء، مع الأمتعة والماشية، إلى الجبل الذى يعلو موضع سِيدياّ؛ ثم حاصروا القلعة، وأخذوا يهاجمونها على مدار ذاك اليوم حتى حلول الظلام. دافع صاحب القلعة عنها فى شجاعة، إلى جانب اثنين وثلاثين مسيحيا كانوا موجودين بالداخل، والجنود العشرين، واثنى عشر فرداً من أهالى البلدة؛ لأن الباقين كانوا قد غادروا المكان. فى نفس ذاك اليوم اندلعت الثورة فى موضعى سِيدياّ وسالاريس، واحتشد الأهالى معاً.

الفصل السادس عشر

يتناول كيفية إنقاذ أريبالو دى ثواثو -مأمور بلش القضائى- لحصن كانييس دى أثيتونو.

لم يتوان غونثالو دى كاركامو عن إرسال الإشارات الدخانية، حينما أشاع المسلمون الثورة فى البلدة. بيد أن الطقس كان مشمسًا للغاية، فلم يتمكن جنود بلش الذين يتولون دورية المراقبة على الربوة -التى أشرنا إليها آنفًا- من ملاحظتها؛ أو ربما غفلوا عن أداء واجبهم. حينما رأى السيد غونثالو أنهم لم يجيبوه على النسق المتفق عليه، شرعت النسوة -اللواتى ألفين أنفسهن محاصرات- فى استشعار الكرب؛ وطالبنه، وهن يذرفن الدمع الغزير، أن يبعث أحد الرجال الموجودين بالقلعة إلى المدينة لتنبيه من بها إلى ما دار، من أجل أن يبعثوا إليهم من ينجدهم. حتى أنهن أنفسهن تضرعن إلى رجل موريسكى يدعى خوان نابارّو **Juan Navarro** -كان قد قبض عليه على خلفية عدد من الديون- لكى يضطلع بتلك المهمة؛ ووعدنه بمكافآت مجزية نظير قيامه بذلك. فما كان من الرجل إلا أن تطوع أن يذهب ويأتى إليهم بالرد. حينما تراءى لصاحب القلعة، أنه فى حال عدم تنفيذ الرجل لما تعهد به، فإنه لن يضيره كثيرًا وجود فرد زائد من الأعداء فى الحقول، كتب رسالة إلى المجمع الديرانى لمدينة بلش. وحث الموريسكى على القيام بواجبه من أجل أن يحسن إليه، ثم خاط له الخطاب فى بطانة الثوب. فى غمار انهماك المسلمين فى إخراج الأمتعة من المنازل، وإرسال النساء إلى النقطة المنيعة فى سِيديًا، باتت الفرصة مواتية أمام السيد غونثالو من أجل إلقاء الرسول من الفتحة الخفية الموجودة ببوابة الحصن. حيث قال له أن يخبر المسلمين أنه يلوذ بالفرار، إذا ما سألوه عن شىء ما.

دلف الرجل إلى شوارع المدينة مهرولاً، كمن هرب من سجن. فقابل ثلاثة مسلمين سألوه كيف أتى من تلك الناحية، فاستحلفهم بالله أن يجيروه لأن الجنود يلاحقونه. لم يدعه الرجال يمر فحسب، بل شجعوه على استكمال طريقه، وساروا برفقته حتى الساحة. وهناك ألفى واحداً من أشقائه يرفع راية المسلمين، فأخبرهم أنه يرغب أولاً فى الذهاب لجلب قوس كان قد خبأه. ثم انطلق نزولاً فى الطريق الموازى لنهر لاغيث Laguiz، ليسلك بعدها الطريق المفضى إلى بلش. فحذر المسيحيين الموجودين عند الطواحين وأشخاصا غيرهم إلى اندلاع الثورة فى الأراضى؛ ثم وصل إلى المدينة وأعطى الرسالة لأريبالو دى ثواثو، الذى كان قد حضر إلى هناك قادماً من مالقة من أجل حماية المدينة، فى أعقاب تسلمه رسالة التحذير الثانية التى بعثها إليه السيد خوان دى أوستريا. حيث بات مختصاً بإجراء بعض الإصلاحات، من أجل تأمين المواطنين داخل الأسوار المهدمة. ود السيد أريبالو معرفة إذا ما كان الانقلاب قاصراً على أهالى البلدة فحسب، أم أن غرباء قد حضروا إليها لإثارة أهلها. قبيل اتخاذه قرار إنقاذ الحصن، أراد إرسال الموريسكى ذاته إلى غونثالو دى كاركامو ليخطره بكنه الأناس الموجودين بالجبل، لكنه لم يستطع الذهاب فى ذاك اليوم لكونه قد جاء متعباً للغاية.

بات المجمع الديرانى بأكمله قلقًا للغاية لعدم تيقنه من أمر يحمل ذلك القدر من الأهمية. فهم من ناحية يخشون إرسال المقاتلين لإغاثة كانييس -التى تقع على بعد ثلاثة فراسخ كبيرة من هنا- حيث يمكن لمسلمى البقاع الجبلية الأخرى الإغارة على المدينة فى توقيت يتيح لهم الوصول إلى مبتغاهم. ومن ناحية أخرى يرغبون فى إنقاذ ذاك الحصن، لكى لا يضيع أمام أعينهم. أراد المجمع فى نهاية الأمر معرفة ما يجرى، فأرسل إلى مجلس بنى مُقرَّة Bena Mocarra -بدلاً من الانتظار ليوم آخر- آمراً إياه أن يبعث رجلين محل ثقة من الموريسكيين برسالة من المأمور القضائى إلى غونثالو دى كاركامو، يطالبه فيها بإخطاره إذا ما كان المسلمون الذين تبقّوا فى البشرات هم من عملوا على إثارة البلدة، أم أن الأمر يقتصر على الأهالى فحسب، وكم عدد الرجال اللازمين لإغاثته فى رأيه. توجه رجلان موريسكيان من أهالى تلك البلدة -أحدهما

يدعى إيرنانو الثوردى Hernando el Zordi -بتلك الرسالة؛ بعد إعطائهما أمرًا بالوصول ليلاً إلى الجزء المنخفض من الحصن، وتسليمها إلى القائد. وحتى يتمكنا من القيام بمهمتهما بطريقة أكثر أمنًا، أمرهما أن يحملا معهما بندقيتين وسيفيهما.

عندما باتا على مقربة من البلدة، فى البقعة التى بدت لهما أنها أقل موضع قد يستشعر وجودهما فيه أحد، وثبا على كتيبة الحراسة والدورية اللتين نظمهما الثوار الجبليين. على الرغم من أنهما خاطباهم بلغتهم، وأخبراهم بكونهما من الثوار، فإنهم لم يصدقوهما، وأرادوا الإجهاز عليهما، حيث قالوا إنهما يدبران مكيدة ما. وكان الأمر سينتهى نهاية سيئة، لولا أن تصادف أن وصل إلى هناك مسلم من بلدة كانييس ذاتها، يدعى فرانثيسكو تاوث Francisco Tauz. وكان يعرف الثوردى، فضمنه، وقال إنه رجل ذو سمعة طيبة، وإنه من الخطأ الإساءة إليهما. وإذا ما تصرفوا على هذا النحو فلن يجرؤ أحد على الانضمام إليهم. كما أن الثوردى -بوصفه رجلاً ماكرًا- أخبرهم أن أهالى بنى مُقرّة قد بعثوهما ليريا إذا ما كانت أنباء اندلاع الثورة فى الجبل صحيحة. فهم يرغبون فى القيام بذات الشىء، إذا ما أمدوهم برجال لنجدتهم، على أن يرافقوهما خلال الطريق، لأنهما يخافان من قوات بلش لكونهما أعزلين. حينما استمع تاوث إلى تلك الكلمات، صار يقفز من فرط السرور، وبات يسأله عدة مرات إذا كان ما يقول صحيحاً. فلمّا أكد له صحة الأمر، قال للثوار الجبليين إن المسلمين لن يرد عليهم يوماً أفضل أو أسعد من الذى يعلمون فيه أن بنى مُقرّة ترغب فى الثورة على الحكم. لأنه لن يبقى موضع فى الشرقية أو هوة مالقة إلا سيحذو حذوها.

أفلح ذلك الأمر فى تهدئة الغرباء، الذين حملوا الموريسكيين إلى قائدهم خُريران. فمنحاه ضمانهما المزعوم[١٤]، الذى حفظ لهما حياتهما؛ وكانا قد نجحا فى سرد الأمر بأسلوب يبعث على تصديقهما. ففرح بهما، وأمرهما أن يرجعا إلى بنى مُقرّة؛ وأن يخبرا الأهالى أنه يتعهد بإغاثتهم، عن طريق إرسال قوات تفوق تخيلاتهم، خلال ثلاثة أيام.

---

(١٤) يقصد المعلومات غير الصحيحة التى أدليا بها. (المراجع)

حينما سمعه الثوردى ينطق بتلك العبارات، أدرك أنه ينتظر وصول رجال من الخارج، فأجابه على النحو التالى: "سيدى، لا أدرى ما الذى سيمكنهم من الانتظار كل ذاك الوقت؟ لقد حزموا ثيابهم بالفعل! وإذا أحس بهم من فى بلش، فسوف ينحرونهم". أعجب المسلم بما قال، وأطرق هنيهة، ثم قال لهما أن يذهبا ويعودا فى صباح الغد، وسوف يرسل معهما دورية حراسة قوامها مائتا جندى من البواسل، الذين لن يدير أحدهما وجهه أمام عشرة من محاربى بلش؛ ولن يمنى الأمر بالفشل. كما أنه سيضع -على سبيل الإشارة- رايةً ملونةً مع طلوع الشمس أعلى الطاحونة التى يطلقون عليه بُوَيِبى Poaype، لكى يدركا أن الرجال بانتظارهما. ثم أمر بتقديم وجبة عشاء فخمة لهما، وصرفهما من عنده بتلك الأنباء السارة.

فى صباح اليوم التالى خيم على البلدة صمت رهيب، فبدت وكأنما لم يبق بها كائن حى؛ فرغب الجنود فى الخروج من الحصن لجمع ما خلّفه الموريسكيون فى المنازل. إلا أن القائد لم يوافق على ذلك، على الرغم من كثرة إلحاحهم عليه، لأنه ارتاب فى وجود خدعة ما. فأرسل موريسكيًا آخر -كان قد احتمى مع زوجه وأبنائه بالحصن- ليرى إذا ما كان الأعداء قد غادروا المكان. فما أن دلف من بوابة البلدة، حتى أُلقِى القبض عليه، وحُمِلَ إلى الخُريران ظنًا فى كونه مسيحى، لأنه كان لاجئًا لدى المسيحيين. فأمر ذاك الأخير باقتياده إلى حصن سِيديًا، وتسليمه إلى القاضى الذى عينه نائبًا عنه لينفذ فيه حكم العدالة. أراد الخُريران الوفاء بالكلمة التى أعطاها إلى موريسكيى بنى مُقرّة، فأرسل رايته الملونة فى المقدمة برفقة عشرة من المسلمين، لكى يتولوا وضعها على مشارف فج الأبيث Fax Alaviz، أعلى صخرة كان يُطلَق عليها حجر الأبراكانا Haxar Alabracana - وتلك التسمية تعنى صخرة قرن الماعز[١٥] Cornicabra. وهو موضع مرتفع وبارز، يحظى المرء فيه بإطلالة جيدة للغاية. عندما احتشد ما يربو على خمسمائة مسلم، نزل لينضم إليهم، من أجل أن يتوجهوا لنصب كمين عند طاحونة بُوَيِبى عقب حلول المساء، كما قال من قبل.

(١٥) العلاقة بين الاسمين ليست واضحة لدينا. (المراجع)

ترك الخُريران بالبلدة رجلا مسلما يدعى ألونسو مونتيكال Alonso Montical برفقة فوج آخر من أهالى البلدة، بالإضافة إلى مواطنى سِيديًا وبعض المواضع الأخرى، الذين قدموا إلى هناك عقب معرفتهم باندلاع الثورة فى كانييس. وقد أمره ألا يوقف الهجوم على المحاصرين، أثناء ذهابه لتولى أمر بنى مُقرّة والعودة مرة أخرى. دارت معركة شديدة للغاية، ودامت لما يزيد على ساعتين، قاتل خلالها حاكم الحصن ومن معه باستبسال شديد؛ وفى نهاية الأمر تراجع المسلمون قبيل انتصاف النهار بساعتين بعد أن منيوا بخسائر. كان الثوردى ورفيقه قد تأخرا أكثر مما أرادا فى توصيل أخبار ما جرى إلى مدينة بلش. حيث عطلهما إلحاح المسلمين، الذين توافدوا عليهما من أجل التحقق منهما عن صحة الأخبار التى تفيد برغبة بنى مُقرّة فى الانضمام إلى ركب الثورة؛ لأن السعادة التى شعروا بها حيال ذاك الأمر كانت غامرة. أمسى المأمور القضائى لبلش متحفظًا، فهو لا يدرى أقتل الرجلان، أم أنهما انضما إلى صفوف المسلمين؟ فأمر باستدعاء الموريسكى، الذى كان قد حمل إليه كتاب قائد الحصن، وبعثه برسالة أخرى، تحمل نفس فحوى كتابه الذى تسلمه. وعهد إليه أن يسعى لتسليمها على وجه السرعة، وأن يرجع إليه لاحقًا بالجواب.

وصل الرجل فى الوقت الذى كان المسلمون عائدين فيه من المعركة، فاختبأ خلف شجرة زيتون – توجد إلى الخلف قليلاً من الحصن. ثم أشار إليهم بعباءته، حتى يؤمنوا له الطريق إلى أن يبلغ الحصن. فهم القائد مغزاه، أو أمّنه، حيث أصدر أوامر بتوجيه الرماة إلى تلك الناحية، بطريقة مكنت الرجل من الوصول سالمًا إلى أحد أجزاء السور التى تقع بين برجين، وكان بها نافذةٌ ضخمةٌ؛ فرفعوه بحبل إلى أعلى. قرأ القائد الرسالة التى بحوزته، ثم بعثه برسالةٍ أخرى ردًا عليها، أنبأ فيها أريبالو دى ثواثو أنه حتى ذلك الوقت ليس هناك سوى المسلمين الموجودين بالأراضى، ومعهم بعض الغرباء. لكنه إبان وصول الموريسكى إلى سد نهر بلش، أدرك أنهم سيدعمون المكان بما يزيد على خمسمائة مقاتل من المشاة والفرسان؛ لأن الرجلين الموريسكيين التابعين لبلدة مُقرّة كانا قد وصلا إلى المكان، وقصا عليه رواية دقيقة للغاية حول ما جرى.

اكتشف كل من المحاصَرين والمحاصِرين فى آن واحد وجود رجالنا. فنكّس المسلمون الراية البيضاء التى كانوا قد وضعوها على حجر العقاب، وتخلى مونتيكال ومن يرافقونه عن محاصرة الحصن، وخرجوا يلوذون بالفرار صوب الجبل. كما رجع الخُريران إلى ميناء سِيديًا، وتوجه من هناك للتوغل فى الجبل؛ وهكذا لم تجد قوات الإغاثة عند قدومها أى مسلمين لمحاربتهم. لكن كان من الممكن أن يُحدِثوا أثرًا كبيرًا إذا ما لاحقوهم، لأنهم كانوا جميعًا منهزمين ومشتتين من الخوف. تقدم أحد السيافين، وكان يدعى دييغو مورينو **Diego Moreno**، إلى الأمام مع رجال آخرين من رفاقه؛ وظل يسير لبعض الوقت، حتى أمره المأمور القضائى بالتراجع، بعد أن اكتفى بإنقاذ الحصن. وقام بإخراج مائة من النساء والأطفال الذين كانوا بداخله، وترك مع القائد عشرين جنديًا؛ ثم قفل عائدًا إلى بلش فى تلك الليلة. أما المسلمون فقد لجأوا إلى نقطتهم المنيعة.

الفصل السابع عشر

يتناول اندلاع الثورة في كومبيتا، ومواضع جبل منتميس الأخرى، وتحصن أهلها بجبل فريخيليانا المنيع.

فى أعقاب ثورة مواطنى كانييس دى أثّيتونو، وسِيديّا، وسولارِس، سار على نهجهم أهالى كومبيتا ومواضع جبل منتميس الأخرى. وقد حرّضهم على ذلك رجل من أهل كومبيتا يدعى مارتين الوزير Martín Alguacil؛ وهو رجل نبيل يتمتع بنفوذ كبير بين الناس، نظرًا لكونه من أصل سلالة آل الوزير، الذين كانوا يحكمون تلك الأراضى فى عهد المسلمين. كان ذاك الموريسكى يتظاهر بكونه مسيحيًا مخلصًا، وشخصًا متفانيًا فى خدمة صاحب الجلالة؛ كما أن ذاك الاسم أكسبه ثقة الآخرين، حيث عُهِدَ إليه بتقسيم الضرائب المفروضة التى يدفعها الموريسكيون فى تلك الناحية. وكان سيادة الرئيس بدرو دى ديثا قد كلفه، هو وبيرناردينو دى رِينّا Bernardino de Reina –نائب مجلس بلدية بلش، الذى ينتمى أيضًا إلى الأمة الموريسكية، ويتولى توزيع الضرائب المفروضة فى الشرقية بمالقة– بتوزيع المعاطف والتنورات التى يتصدق بها جلالة الملك على الأرامل والنساء الفقيرات. وكان يحثهما على حض الأهالى على التخلى عن الأزياء والعادات الموريسكية، والرضا بما جاء فى المرسوم. وكان كلاهما قد أدى واجبه المنوط به على نحو جيد، كما كان الناس يظنون أن منتميس ما زالت مستقرة نظرًا للاحترام الذى يلقاه مارتين الوزير.

كان ذاك الأخير قد حضر فى تلك الأيام إلى بلش، ومثل أمام المحاكم –بصفته الشخصية– ليدلى بشهادة. فقال إنه مسيحى صالح، وإنه سيحيا ويموت على دين

يسوع المسيح، وأنه سيؤدى، بإخلاص وعلى أكمل وجه، كل ما يؤمر به؛ بوصفه من الرعايا الأوفياء لجلالة الملك. بيد أنه كان مخادعًا، لأنه كان قد علم أن المدينة تنتوى جلب بعض الأهالى البارزين من المناطق الجبلية، واعتقالهم للحيلولة دون قيام المواطنين الآخرين بالثورة. حينما أدرك أنه لابد وأن يمسى واحداً منهم، أقدم على القيام بذاك الإجراء من أجل الإفلات من ذاك المصير؛ وهكذا عاد أدراجه إلى كومبيتا. فى أعقاب ذلك، أرسل أريبالو دى ثواثو يستدعيه لتشجيعه على المحافظة على ولائه، والعمل على تحقيق الأمر ذاته بين المواطنين؛ فلم يرغب فى الذهاب، وسعى لتأليب الأهالى على الحكم.

قام الرجل بحشد مواطنى كومبيتا، ومواضع أخرى متاخمة، وساق إليهم حجته على النسق التالى: " أيها الأخوة والأصدقاء! يا من تفكرون فى التحرر من أعباء تلك البلوى التى أنزلها بنا أهل البشرات، ها أنتم تشهدون المقابل الذى نحصل عليه جزاء إخلاصنا. إن السلطات القضائية فى بلش تود القضاء علينا جميعًا، على أثر حماقة اقترفها الثوار الجبليون، فى صحبة نفر من الغلمان التافهين قليلى الإدراك، فى نزل بدرو ميِّادو. فهم لم يقنعوا بإعدام العديد من أصدقائنا وأقاربنا، ممن نعرف أنهم لم يكن لهم دخل فى الأمر أو علم به؛ بعد أن حملوهم على إدانة أنفسهم بأنفسهم، عقب إخضاعهم لأساليب تعذيب مبتكرة ووحشية. وفى الوقت الذى يأسفون فيه لمشاهدة الأمة الموريسكية تثور على الحكم، بينما نحن فقط نلتزم الهدوء فى ديارنا، انظروا ههنا رسالة يستدعينى فيها المأمور القضائى. وأنا أدرك أن الغرض هو اعتقالى وقتلى، لأنه ما من مسألة أخرى تربطه بى أو تربطنى به. كما أنه أرسل يستدعى إيرناندو الدرّة Hernando el Darra. بات الموت أمرًا محققًا، وقد تراءى لى أن أمنى به نظير الاضطلاع بأمر لن يُلحق بى الخزى على أقل تقدير، ألا وهو الدفاع عن حريتنا. إذا ما متنا ونحن نقاتل، فسوف تعيدنا أمنا الأرض من حيث أتينا. ومن ليس لديه قبر يؤويه، سيجد سماءً تظله. معاذ الله أن يُقال إن رجال منتميس لم يجسروا على الموت من أجل وطنهم. إن ابن أمية رجل صاحب نفوذ، وقد حقق الكثير من الانتصارات على المسيحيين؛ وسوف يأتيه أناس من إفريقيا لإغاثته. كما أن الباب العالى قد وعده

بالوقوف إلى جانبه، وهو ما ينتظره فى تلك اللحظات. إن بلاد المغرب بأسرها تتأهب للدفاع عنا. فليأت ابن أمية إذن لرئاستنا جميعًا، ولنكن له طائعين، فإن المسيحيين قد صنفونا كمسلمين. فلا نتيح لهم فرصة خرق القانون، وتطبيق الشدة فحسب، عن طريق حملنا إلى المشنقة واحدًا واحدًا".

إلى هنا أنهى مارتين الوزير حديثه. وقد استحسن الجميع رأيه، وأجابوه بأن صبرهم قد زاد عن الحد، مع تحملهم لكل تلك الإهانات التى لحقت بهم. فقاموا من فورهم وأخرجوا الأسلحة التى كانت مخبأة لديهم. ثم زينوه بمآزر قيمة من الحرير والذهب -وكأنه أحد القديسين-، وأركبوه بغلة بيضاء، وأقبلوا عليه جميعًا لتقبيل يده وردائه. فما كان من الرجل إلا أن باح عن مكنون قلبه، فرفع يديه وشخصت عيناه إلى السماء وهو يقول: "أحمدك وأثنى عليك يا إلهى أن جعلتنى أرى هذا اليوم". ثم قاموا هنالك بتعيين قادة مخصصين لكل موضع من المواضع. وحينما تراءى لهم أنه من الأفضل أن يقوموا جميعًا بحشد صفوفهم فى جبل فريخيليانا، وهو مكان حصين للغاية ويقع على مقربة من البحر؛ أرسلوا إلى أهالى حصن سِيديًا، مطالبين إياهم بالقدوم للانضمام إليهم. كان أولئك المواطنون يؤمنون بما لديهم من اعتقادات باطلة حول قبور أربعة من المرابطين، يُقَال إنهم مدفونون فى رباط كانييس دى أثّيتونو، الكائن بجوار الحصن. فباتوا لا يريدون أن يهجروا المكان، حتى أنهم بعثوا إليهم بأمتعة وأناس، وحملوهم على ألا يقدموا على أمر آخر يخالف إرادة شيخ مسلم يدعى خورون دى ليمون Jorron de Leimon. وكان قد أخبرهم ألا يدعوا المكان لأى سبب من الأسباب، لأنه موضع مبارك، ولطالما شهد فيه المسلمون أحداثًا سعيدةً فى كنف أولئك القديسين؛ وأن ذاك الأمر مدون فى كتبهم المقدسة. حينما أدرك الرجل أن تحذيراته لم تفلح معهم، وإنهم يستريحون أكثر إلى الانصياع لمشيئة مارتين الوزير، ظل يصيح وينادى مرارًا وتكرارًا حول ذاك الصدد؛ حتى جُنّ، وفقد رشده، كما فقد قدرته على النطق والإدراك.

فى أعقاب تجميع الكل فى كومبيتا، قاموا بتنصيب إيرناندو الدرّة حاكمًا وقائدًا عامًا. وكان يلقى بينهم مكانةً رفيعةً للغاية، لأن أسلافه كانوا قضاة وحجاب فريخيليانا

إبان حكم المسلمين. كما عيّنوا ثلاثة فقهاء كمستشارين للأمور الدنيوية وشئون العقيدة: أحدهما من سِيدِيًا، والآخر من سالاريس، والثالث من دايمالوس. لم يُلحِق أولئك الأناس أى أذى بجيرانهم المسيحيين، لأن الشكوك التى كانت تراود أولئك القوم حملتهم جميعًا على توخى الحذر. فأرسلوا من بقى بينهم من الكهنة القانونيين إلى بلش، وكان من ضمنهم شخص يدعى كريستوبال دى فريّاس Cristóbal de Frías، يشغل منصب الكاهن القانونى لكومبيتا، أقدم على التحصن فى برج الكنيسة برفقة ثلاثة أو أربعة مسيحيين آخرين.

أراد مارتين الوزير أن يدفع عن نفسه وزر ذاك التصرف أمام المسئولين فى بلش. وأن يُفهِمهم أن الثورة قد نشبت رغمًا عن إرادته، وأن المسلمين الغرباء قد حملوهم على القيام بها؛ وأن هناك عددًا غفيرًا منهم فى البلدة، مما يحول دون الخروج لمجابهتهم إلى أن يلتزم الأهالى جانب الحرص. فأمر بنقل الناس إلى محيط الكنيسة، وجعلهم ينقلون الأسلحة والثياب من موضعها لكى تبدو كثيرة العدد. بعد أن قاموا بذاك ثلاث أو أربع مرات، وصل إلى البرج، ونادى على الكاهن القانونى، وأمره أن يتشجع لأنه لن يسمح أن يلحقه أذى، هو ومن معه. وعليهم أن يذهبوا فى أمان إلى بلش، ويخبروا المواطنين أن الخِيرونثيّو قد أشعل الثورة فى الأراضى بمساعدة أناس غرباء. وأن أهل منتميس يأسفون كثيرًا لذاك الأمر، فهم -بوصفهم مسيحيين صالحين، ورعايا أوفياء لجلالة الملك- ما كانوا يرغبون أن تصدر أى أحداث من قبلهم. وأن يؤكدوا لهم أنهم لن يتعرضوا لهم أو يعرضوا منازلهم لأى سوء، بل سيسعون لتحقيق كل ما فيه نفعهم، لأنهم أصدقاء وجيران. ثم أمدهم بنفر من الرجال المسلحين لمرافقتهم، وأرسلهم إلى مدينة بلش؛ أما هو، فقد مضى للالتجاء إلى حصن فريخيليانا، مصطحبًا معه سائر النساء، والماشية، والثياب.

الفصل الثامن عشر

يتناول حشد أريبالو دى ثواثو للرجال الذين يقعون تحت نطاق سطته، وتوجهه للإغارة على الموريسكيين، ووصفا لجبل فريخيليانا.

عندما ألفى الكاهن القانونى كريستوبال دى فرياس نفسه فى بلش، حمد الرب كثيرًا أن أنجاه من الخطر الذى كان محدقًا به. فلمّا شهد المدينة تموج بالاضطرابات، حيث كانت القوات تعد العدة للخروج إلى الجبل فى تلك الليلة؛ إضافةً إلى أنه لم يكن قد طرح مخاوفه جانبًا؛ بالغ فى تصوير قوة الثوار على نحو يتخطى بكثير حقيقة الأمر، وقال إن الأرض تغص بالمسلمين الغرباء. هذا على الرغم من أن بعض رفاقه الذين قدموا بصحبته بدوا تلك المخاوف، مؤكدين أن الرجال الذين مروا فى محيط الكنيسة عدة مرات أثناء وجودهم بالداخل، هم نفس الأشخاص؛ وإنهم قد تعرفوا على الكثيرين منهم؛ وأن المسلم الخبيث قد دبر الأمر على سبيل الخداع، لكى تظن المدينة أنه قد أتته قوات إغاثة من البشرات. أوقف المأمور القضائى خروج الحملة فى تلك الليلة، لمّا لم يتمكن من حزم أمره وتصديق جانب أكثر من الجانب الآخر. ولكن فى اليوم التالى، فى أعقاب إصرار المدينة على الاضطلاع بالحملة، وبعد قدوم كتيبتين من مدينة مالقة، تحت قيادة كل من السيد بدرو دى كوايّا Pedro de Coalla، وإيرناندو دوارتى دى بارّينتو Hernando Duarte de Barriento؛ انطلق من المدينة فى يوم السابع والعشرين من شهر مايو من العام ذاته، مصطحبًا أولئك الرجال، إلى جانب القوات الموجودة بالمدينة، والتى بلغ قوامها ثمانمائة جندى أخر من المشاة، ومائة فارس. كان قادة المشاة هم: ألونسو ثاباتا Alonso Zapata، وبيلتران دى أنديًا، وماركوس دى لا بارّيرا Marcos de la Barrera، وخوان مورينو دى بيّالوبوس Juan Moreno de Villalobos.

بينما ترأس الفرسان لويس دى باث، وكان كل من هؤلاء وأولئك نوابًا فى مجالس تلك المدن. فتوجه القائد العام السيد أريبالو دى ثواثو إلى موضع توروّكس فى تلك الليلة، وهى تقع على الساحل، فى البقعة التى يبرز فيها جبل منتميس من البحر. وكان موريسكيو ذلك الموضع قد احتشدوا فى الكنيسة، بعد أن حملوا ثيابهم، ونساءهم، وبنيهم؛ وقالوا إنهم مسيحيون. فلمّا شهدوا إطلال الرايات ومعها كل ذاك العدد من الرجال، أرادوا الاحتماء بالقلعة؛ وإزاء عدم رغبة المسيحيين الموجودين بداخلها فى استقبالهم، عادوا على أعقابهم وساروا صوب الجبل، حيث توجهوا للانضمام للثوار.

بات رجالنا ليلتهم تلك فى توروّكس. وكان قد وصل إلى هناك مائة وستون جنديًا من المنكب، وهم -تبعًا لأقوالهم- قد خرجوا لاستعادة قطيع من الماشية كان المسلمون قد سلبوهم إياه؛ فلمّا ألفوا أنفسهم قد ابتعدوا كل تلك المسافة، لم يجسروا على العودة، مخافة أن ينصبوا لهم كمينًا. فى الصباح الباكر من اليوم التالى، انطلق أريبالو دى ثواثو عائدًا إلى جبل فريخيليانا الذى يبعد مسافة فرسخ ونصف من هناك. وقد وصل بالقرب من الساعة العاشرة فى الصباح إلى المنطقة التى يوجد بها عين مياه يسمونها ألامو Álamo -وهى كائنة ما بين الغرب والجنوب- وبها سهل فسيح يمكن لسلاح الفرسان التحرك فى أرجائه. وقد ألفوا هناك بعض الأمتعة، والثياب، والمؤن التى لم يتسن للمسلمين الذين راحوا يلتجئون بالحصن إمكانية الصعود بها إلى أعلى الجبل. وهو ما يجعلنا ندرك إنه لو لم تتأخر قوات بلش فى الخروج كل ذاك الوقت، للحقوا بهم خارج الجبل، ولكان فى استطاعتهم إحداث أثر بالغ مهما بلغ تعداد القوات.

يقع ذاك الجبل ما بين قرية كومبيتا والبحر. ويوجد إلى الشرق منه نهر تشيِّار Chíllar -الذى ينحدر ما بين منخفضات جبلية شديدة الوعورة. بينما يحده من الغرب نهر لاوتين، الذى يتجه ليصب فى البحر، بعد مسيرة تضاهى ذاك الآخر فى الوعورة. من جهة الشمال يهوى جبل منتميس ليكون منحدرًا عميقًا للغاية، ومنه يبدأ جبل فريخيليانا فى البروز إلى أعلى حتى يبلغ ارتفاعًا شديدًا، ثم يعود ليهبط مرة أخرى من ناحية

الجنوب، ليشكّل منخفضًا بالغ الانحدار. وهو ينقسم فيما بعد مكونًا ربوتين: أولاهما كائنة ما بين الشرق والجنوب، وهى تفضى إلى بلدة فريخيليانا؛ أما الثانية -التى تقترب أكثر من اتجاه الغرب- فتؤدى إلى قلعة نيرخا. هذا ويكون الجبل فى مستوى أعلى بكثير، من دون وجود موانع فى أى اتجاه من الاتجاهات لتفرض سيطرتها عليه. أما المداخل المفضية إليه، فهى أجراف بالغة الوعورة وأحجارها قائمة الانحدار، حتى أن عددًا قليلاً من الرجال بالأعلى يمكنه الدفاع عنها فى مواجهة أى جيش جرار. فى الناحية التى تحوى نهر تشيّار، توجد ساقية تستخرج المياه التى تروى أراضى وحقول فريخيليانا، -التى كانت مهجورة فى تلك الآونة. كما أنها تمررها إلى سفح الجبل، وهو الداعى الرئيس الذى حضّ المسلمين على التحصن هناك، حيث لا يمكن حرمانهم من المياه دون خوض صعوبات مضنية. أما عين مياه ألامو -التى تقع على تلك الجهة الثانية، ما بين الغرب والجنوب- فكانت موجودة إلى الوراء منهم قليلاً. يوجد فى أعلى الجبل مجال فسيح، لا يتسم بالانبساط الشديد أو الانحدار الشديد، وهو يتسع لقاطنى جبل منتميس كافة، ولأعداد أكبر -إن وجدت.

فى أعقاب تراجع المسلمين إلى الأعلى، اتخذوا وضعية الدفاع، بعد أن أدركوا أن المسيحيين -بوصفهم رجال حرب- سيقيمون معسكرهم، ثم سيتخذون ما يلزم فيما بعد. وقد ساد بينهم قدر كبير من الاختلاف والفوضى -كما أكد لنا نفر منهم- حينما شهدوا مجىء كل ذلك العدد من الرجال؛ حتى أن الجزء الغالب منهم كان يود العدول عن رأيهم. وربما لو كانوا قد استسلموا جميعًا، لم نكن لنتكبد إراقة ذاك الكم الكبير من الدماء المسيحية التى أريقت. ريثما كان أريبالو دى ثواثو يبحث ما يتعين عليه القيام به، قامت إحدى المجموعات، التى كان قد بعث بها لاستطلاع الأخبار، بالتقدم إلى أعلى الجبل أكثر من الحد المناسب؛ وأخذوا فى الاشتباك مع بعض المسلمين الذين خرجوا لملاقاتهم. فشرع أولئك فى التراجع إلى الأعلى، وهم يقاتلون فى فتور، حتى بدا وكأنهم يفسحون المجال لدخول رجالنا.

حينئذ أمر أريبالو دى ثواثو بتقدم باقى الرجال، والبدء فى القتال، وتتبع آثار من تراجعوا. لكن القادة -الذين كانوا قد اجتمعوا للتشاور- وصلوا سريعًا إلى تلك الناحية،

حينما أبصروا تقدم المسيحيين تجاههم. وقد تقدمهم جميعًا درّة فى بهاء ورونق، حاملاً عصا فى يده، وبات يطلق صيحات عالية، وينهال ضربًا على من يقدم على التراجع. وقد جعلهم القائد يعاودون الهجوم على رجالنا -وهم متأرجحون ما بين مشاعر الخوف والخزى. وكان جنودنا مصممين على مواصلة التقدم إلى الأمام، فى عزم تضاهى خطورته تهوره، لأنه كان هناك ما يربو على ثلاثة آلاف مسلم متمركزين على حافة المنطقة العليا. ورغم أنه كان بينهم عدد قليل من الرماة والقواسين، فقد كان فيهم العديد من الجنود المسلحين بالمقاليع؛ وقد شرع هؤلاء فى إلقاء كم هائل من الأحجار، حتى إنه بدا وكأن رجالنا تعلوهم سحابة من الثلوج. وكان صوت قعقعة المقاليع مدويًا، إلى الحد الذى جعله يضاهى وابلاً جميلاً من طلقات الأسلحة النارية. وكانت الحجار تنهمر فى غضب عارم، حتى أن الأسلحة الهجومية لم تفلح فى التصدى لها.

وقد شهدنا فى ذاك اليوم ترسًا دائريًا وقد اخترقه أحد المسلمين بحجر، وكان واحد من الجنود يحمله كساتر. فاخترقته حصاة ضخمة وغليظة كأنها قبضة، ليعبر نصفها إلى الجانب الآخر. شرع الرجال فى التوافد من كل صوب وحدب؛ وحمل الأعداء على رجالنا على نسق أجبرهم على التراجع بدون نظام، مخلّفين وراءهم بعض الألوية لتجابه خطر الفقد. وكانت رايتا كل من ألونسو ثاباتا وخوان مورينو دى بيّالوبوس ستفقدان لامحالة، لو لم ينقذاهما بنفسهما؛ ثم يتراجعا وهما يقاتلان ويصدان زخم الأعداء. أفاد رجال مشاتنا كثيرًا من عدم تجرؤ المسلمين على مغادرة وعورة جبلهم، خوفًا من سلاح الفرسان؛ الذى شاهدوه وقد اصطف فى انتظار هبوطهم إلى بقعة تتيح له الدخول فى المعركة. قاتلوا فى ضراوة حتى بلغوا موضع سيوفهم. وعلى الرغم من أن الكثير منهم قد لقى حتفه من جراء طلقات البنادق، أثناء هبوطهم دون غطاء يقيهم هجوم رماتنا -الذين كانوا يطلقون عليهم نيران أسلحتهم لدرء الهجوم عن أنفسهم-؛ فقد تمكنوا مع ذلك من قتل عشرين مسيحيًا، وجرح ما يزيد على مائة وخمسين. وكانوا سيحدثون أضرارًا أفدح لو كان معهم أسلحة، أو لو أنهم جسروا على الاستمرار فى ملاحقتهم.

فى أعقاب تراجع الرجال ومداواة الجرحى، أمر أريبالو دى ثواثو بحشد الصفوف، وقفل عائداً إلى بلش فى وقت متأخر للغاية من تلك الليلة، دون أن يغامر أكثر بحظوظ الحملة. حيث لم يكن يشعر بالسرور، وكانت تنتابه رغبةٌ عارمةٌ فى معاقبة أولئك الهمجيين.

الفصل التاسع عشر

يتناول كيف تلقى ماركيز بلش تحذيراً فى بيرخا عن توجه ابن أمية للإغارة عليه، وتهيئه لانتظاره.

كان ماركيز بلش موجوداً فى بيرخا فى صحبة جيش صغير، لأن العدد الأكبر من الرجال كان قد هجره، كما أسلفنا آنفًا، حيث غادر البعض الحملة للاستمتاع بالفيء الذى غنموه، بينما لم يقدر آخرون على مكابدة الأعمال والحاجة الشديدة التى يتعرضون لها هناك. وانطلاقًا من كون الماركيز رجلاً حريصاً على أداء المهام المنوطة به، سعى لمعرفة ما يقوم به الأعداء. بعد أن مكث الماركيز عدة أيام، دون أن ترد إليه أنباء مؤكدة فى ذاك الصدد، تلقى تنبيهاً حول مشاهدة نيران على قمة إحدى الروابى القريبة من المعسكر كل ليلة، وكانت تبدو كإشارات يرسلها المسلمون. فبعث بقائد أحد الكتائب، ويدعى فرانثيسكو دى ثيربانتس Francisco de Cervantes، أن يتوجه ليلاً لاستطلاع الأمر؛ وذلك برفقة عشرين جندياً من أفراد كتيبته. وقد أظهر الرجل همةً عاليةً، فجلب له رجلاً مسلمًا من جواسيس ابن أمية، بعد أن ألقى القبض عليه. وكان ذاك الشخص -كما عُرِفَ لاحقًا- هو من يشعل تلك النيران بالليل، بينما يختبئ أثناء النهار فى مدخنة أحد البيوت الموجودة فى داليّاس.

تم إحضار ذاك الرجل إلى بيرخا، وأمر الماركيز بتعذيبه. فاعترف بالكيفية التى حشد بها ابن أمية محاربى البشرات فى قرية بالور؛ وكيف أنه قام باستعراض عام للقوات، فألفى لديه ما يربو على عشرة آلاف مسلم مجتمعين؛ وأن غالبيتهم مسلحون بالبنادق والأقواس الفولاذية. كما أنه قد قرر شن معركة صباحًا على بيرخا على رأس

هؤلاء الأشخاص جميعًا، لأنه حينما أرسل يسأل موريسكيي البيّازين فى غرناطة والغوطة، ونهر المنصورة، كيف لهم أن يشاهدوا ملكهم شاهرًا أسلحته فى يديه لنيل الحرية، بينما يتسمون هم بالدعة والهدوء؛ فى الوقت الذى يجب أن يكونوا أول الثائرين! ولما أخبرهم إنهم إذا لم يبادروا بإعلان الثورة، فإنه سيصدر أوامره حتى يدمرهم المسيحيون عن آخرهم، أجابوه بأنهم لا يجرؤون على حزم أمرهم، طالما بقى ماركيز بلش فى البشرات فى صحبة معسكره بعد أن تشكلت صفوفه؛ وإنهم سيثورون على الحكم فى حال قتله أو إلقاء القبض عليه. كما أخبرهم الجاسوس أنه فى غمار تعجّل ابن أمية لشن تلك الحملة، ورغبته في معرفة إذا ما كان المعسكر سيغادر بيرخا، فقد قام بزرع ذلك الجاسوس. وأن تلك النيران التى كان يشعلها كل ليلة، كانت إشارة على أن المعسكر لا يزال مستقرًا.

كان المسلمون قد ألقوا القبض على خمسة جواسيس من معسكرنا. وكان ماركيز بلش يتوخى الحذر الشديد، حيث اعتبر ما أظهروه من همة بالغة دلالةً على المكر. وحينما نظر فيما اعترف به المسلم، أدرك أنه يقول الحقيقة دونما شك، وأنه قد صدرت الأوامر لتنفيذ حدث ما. حيال رغبته فى الإمعان فى التيقن من تلك الأمور التى ينبغى له معرفتها، انطلق القائد توماس دى إيريّرا Tomás de Herrera -الذى تولى قيادة فرسان أدرا، فى أعقاب وفاة دييغو غاسكا- ليلاً يرافقه نفر من رفاقه؛ فاعتقل ثلاثة من الموريسكيين، وأحضرهم موثوقى الأيدى إلى المعسكر. شكر ماركيز بلش له صنيعه كثيرًا، وأمر مستشاره القانونى الأب ناباس دى بويبلا بإخضاعهم للتعذيب. لم يشأ اثنان منهم الإفصاح عن أى شيء، بينما أعلن الثالث عن صحة ما أدلى به الجاسوس آنفًا؛ وقال لهم أن يشنقوه إذا لم يأت ابن أمية للإغارة على المعسكر فى غضون ثلاثة أو أربعة أيام. وأنه سيصطحب معه سائر الجموع التى حشدها فى بالور، مقسمةً إلى ثلاث مجموعات: ليهجم بأولاها على البلدة من البقعة السهلية، حتى يجذب سلاح الفرسان إلى تلك الناحية؛ لكى يتسنى له الانقضاض على المخيمات بالقسمين المتبقيين وهو بمأمن. لأنه كان ينتوى من خلال سلوك ذاك النهج أن يفرّق جموع المسيحيين،

حتى لا يتصدوا له أو يفرضوا سيطرتهم عليه فى أى وقت من الأوقات. كما أن كل من سيحضرون برفقته هم أناس منتقون: فأحدثهم سنًا لا يقل عن العشرين، وأكبرهم لا يتخطى الأربعين عامًا.

أسفرت تلك الاعترافات عن تنامى حذر ماركيز بلش، الذى تعاظم كثيرًا عندما وصل المسلمون فى أحد الأيام إلى التجول فى بيرخا، وحملهم لأمتعة باتوا يجمعون بها الأعشاب من أجل إطعام الخيول، وهو أمر لم يكونوا قد جسروا على القيام به من قبل، وفهم الماركيز أن مجيئهم كان اختبارًا، حتى يروا إذا ما كان الرجال سيهرعون لدق ناقوس الخطر؛ وكذلك لحساب بعد المسافة التى تفصل سلاح الفرسان عن جموع المشاة. على ضوء رغبة ماركيز بلش فى استعراض ومشاهدة ما فى حوزته من جنود، دون أن يعى أحد الغاية التى يسعى إلى تحقيقها، أمر بخروج الفرسان والمشاة على سبيل المرح، للقيام ببعض المناوشات فى الحقول. لاحقًا، بعد أن حل الظلام الدامس، أمر باستدعاء السيد خوان إنريكيث -الذى كان قد عاد من غرناطة-، وكل من السادة دييغو، وخوان، وفرانثيسكو فاخاردو؛ بالإضافة إلى السيد دييغو دى لِيِّبا، وفرسان وقادة آخرين ممن يضطلعون بأدوار فى مجلسه. وحينما أمسوا مجتمعين فى مقر إقامته، ظل يجول فى أرجاء غرفته لوقت طويل دون أن ينبس ببنت شفة، وهو لا يدرى ما العمل.

تراءى له إنه إذا ما أعلن عن مجىء ابن أمية، فإن غالبية من معه هناك من الرجال سيدعونه ويرحلون؛ وكان عددهم لا يرتقى إلى ألفين وخمسمائة جندى -من المشاة والفرسان. وإذا ما كتم الأمر، فكان يخشى أن يفاجئه العدو وهو غافل. فى نهاية الأمر، بعد أن ظل مترددًا فى فكره، خاطبهم على النحو التالى: "أنتم تظنون أيها السادة أن ما قمنا به اليوم كان بداعى الترفيه. فلتعلموا إذن أن الغرض كان الوقوف على ما لدينا من جنود، لأننى لم أكن أريد القيام باستعراض عام. وقد عثرت على قوات مشاة هزيلة، وأعداد ضئيلة ودون المستوى من الفرسان. لابد للمسلمين من الإغارة على مخيمنا هذه الليلة لا محالة. فانظروا ما الذى يتعين علينا فعله فى رأيكم. وأنا إلى جانب كونى أتحدث عن أناس على قدر عال من الكفاءة، فها قد رأينا المحل

الذى ننزل به: فو ليس بالمنيع، أو الآمن، أو بالذى يمكن الدفاع عنه. وإذا ما ذهبنا من هنا، فإننا هالكون لا محالة، وكذا الحال إذا ما بقينا!".

فى أعقاب ترديده لتلك الكلمات الأخيرة مرات عديدة، أجابه السيد خوان إنريكى متسائلاً لم لم يأمر بإقامة متاريس بالمكان، وتعزيزه، على مدار الشهر الذى قضاه مستقراً به، لمّا كان على دراية بمدى قلة تحصين ذاك الموضع؟ فرد الماركيز على قوله وهو يستشيظ غضباً: "لا يمكننى قول أى شىء فى ذاك الصدد، إلى أن ينتهى ذاك الأمر الآخر إلى خير أو إلى شر". وقد ظل الحوار دائراً، إلى أن تم تبنى قرار بأن أفضل حل -على ضوء ضيق الوقت الشديد- هو إصدار الأوامر إلى الجنود للاحتشاد خلف ألويتهم؛ وحمل الأسلحة فى أيديهم، حتى لا يباغتهم الأعداء وهم غافلون. استحسن الماركيز ذاك الرأى، بيد أنه لم يشأ أن يفصح عن الغاية التى من أجلها يُتَخَذ ذاك الإجراء. بل رأى أن يتم إخبار الرجال أنه يرغب فى الانتقال إلى مخيم آخر قريب فى مكان مستو، لكى يضحى مناسباً للجياد.

عقب التوصل إلى ذاك الاتفاق، أمر الماركيز القائد رودريغو دى مورا Rodrigo de Mora -الذى كان يشغل منصب قائد الجند- أن يتم دق الطبول لحشد الرجال؛ وأن يتخذ كافة الرجال مواضعهم؛ وأن يتم تحميل المتاع، على أن يُقَال لهم إن ذاك الأمر يجرى من أجل نقل المعسكر. من ناحية أخرى، أخبر الماركيز من بالمجلس أن ينبهوا القادة إلى ما ينتوون فى سرية، لكى لا يتوانوا، ويلزموا جانب الحرص مع الجنود. كان هناك من نقل التحذير على نسق مغاير للغاية لما جرى: حيث اكتفوا بالقول إنه عليهم ألا يضطربوا، على الرغم من مشاهدتهم لحزم الأمتعة، لأن الأمر لا يتعدى كونه تجميعاً للرجال؛ وهو ما كلف الجميع ثمناً غالياً. فى نهاية الأمر، قام الماركيز بتدعيم نقاط الحراسة، ومضاعفة الدوريات، ووضع فرسان على مسافات بعيدة، لكى يستطيعوا تحذير الجنود قبل وقت كاف. وبعد أن حمل أسلحته على عاتقه -وكان دائماً ما يحضرها أثناء اختبارات الرماية-، وسرّج فرسه وكبح جماحه، مكث ما تبقى من الليل فى انتظار العدو.

الفصل العشرون

يتناول الكيفية التى أغار بها ابن أمية على معسكر ماركيز بلش فى بيرخا.

انطلق من أوخيخار فى تلك الليلة كل من: ابن أمية، والسيد إيرناندو الصغير، وخيرونيمو المالح، وابن مكنون، وخوان خيرونثّيو، والكثيرون غيرهم من القادة المسلمين؛ يرافقهم ما يربوعلى عشرة آلاف رجل. وقد وصلوا على مقربة من بيرخا فى الوقت الذى كانت طبول المعسكر تدق فيه لحشد الرجال. على الرغم من أنهم أحسوا بأن المسيحيين قد استشعروا قدومهم، فإنهم لم يكفوا عن مواصلة التقدم فى مسيرتهم. سار فى المقدمة العديد من المسلمين الذين يرتدون القمصان أعلى الثياب، من أجل أن يتم التعرف عليهم فى ظلام الليل. وقد تبعهم فيما بعد ما يقرب من ألفى رجل سيراً على الأقدام. وكان من بين هؤلاء الكثير من المغاربة، الذين يعتمرون أكاليل الزهور على رؤوسهم، لأنهم كانوا قد أقسموا أن ينتصروا أو يموتوا مجاهدين muxehedines؛ وهو ما يعنى فى شريعة محمد أن يصبحوا شهداء. كان أولئك الأشقياء، الذين غرر بهم الشيطان، لا يهابون الموت؛ وهم يزجون بأنفسهم بين الأخطار البالغة، ليتبعوا أملاً زائفًا فى الفوز بالنعيم الأبدى. فوصلوا إلى دورياتنا فى عزيمة ماضية، مما لم يدع أمام رجالنا مجالاً للتراجع فى الوقت المناسب. فوثبوا جميعًا كالعفاريت على المكان، وبادر بعضهم بإشهار أسلحته، بينما شرع البعض الآخر فى إطلاق سيل من الغضب العارم من نيران بنادقه، وإصدار صيحات مدوية -وفقـًا لطريقتهم المعهودة- ؛ حتى أنهم صمّوا آذان سائر من بتلك الساحات.

دلف المسلمون إلى المعسكر من خلال الثكنة التى يشغلها مواطن تشينتشيّا Chinchilla القائد بارّيونوييبو Barrionuevo، برفقة سرية من أبناء المواضع الخاضعة فى لامانشا،

ممن غادروا إمارة بِيينا. فلمّا لم يلاقوا المقاومة التى كان يُفتَرض أن يبديها أناس محتاطون للهجوم، أمعنوا فى التقدم إلى الأمام؛ حتى أن ماركيز بلش بالكاد تمكن من امتطاء صهوة فرسه، من أجل الخروج إلى ساحة المعركة - التى كانت تقع إلى جوار مقر إقامته- قبل أن يمسوا قريبين للغاية منه. فى تلك الآونة تسبب النصح الذى قدمه الماركيز فى الإضرار برجالنا، لأن الجنود قد أعاقتهم الأمتعة، كما أن الأمتعة أدت إلى عرقلة الحركة فى الطرقات؛ ولو تصادف دخول الأعداء من الباب الذى كان الجنود سيخرجون منه، كان المسلمون سيردون الكثير من الجنود قتلى، ولربما تمكنوا من القضاء على القوات. بعد أن تلاشت حدة مشاعر الخوف الأولى، التى حملت الجنود على التقهقر إلى نقاط الحراسة، قام فرسان آل فاخاردو، والقادة: غوالتيرو، وموراً، وليون -الذين كانوا يترأسون سلاح المشاة- بالتصدى للهجوم برفقة نفر من الجنود بلغ عددهم خمسمائة. كما هب لنجدتهم الرجال الذين لم يكونوا قد فرغوا بعد من حمل الألوية، فقاتلوا ببسالة فى مواجهة الأعداء المثابرين -الذين اجتهدوا من أجل تحقيق الانتصار-؛ وأرغموهم على إيقاف تقدمهم، بعد أن قتلوا الكثيرين منهم.

ظل ماركيز بلش ساكنًا إزاء كل تلك الأحداث، حيث مكث فى ساحة القتال إلى جوار الفرسان دون أن يبادر إلى الهجوم، فى انتظار أن تسنح له فرصة جيدة للخروج إلى ميدان المعركة، لأنه كان يضع ثقته فى سلاح الفرسان، ولم يرغب فى تعريضه إلى الزخم الأول لهجوم الأعداء. وحينما أدرك ابن أمية الأهمية البالغة لتحقيقه ذلك الانتصار، بات يمد المقاتلين دائمًا برجال لتعزيزهم. على الرغم من أن هؤلاء لم يتمتعوا بنفس الحماس الذى اتسم به أولئك، بيد أن أعدادهم الوفيرة جعلت القتال ضاريًا. وأخذت القذائف والسهام تنهال على المعسكر بغزارة، حتى لم يعد هناك موقع آمن فى المكان بأسره. وقد باتت الهمم تتعالى مع تعزيزات المقاتلين الجديدة، وتجددت المعركة على نحو أجبر ماركيز بلش على إغاثة رجاله بنفسه؛ بعد أن ترك السيد فرانثيسكو فاخاردو فى الميدان مع كتيبة من المشاة. فخرج من فتحة فى أحد الحوائط الترابية كان قد أمر بإحداثها، لأن الطريق كان يغص بالأمتعة، على نحو أعاق الخيول من المرور؛ وتوجه للإغارة على الأعداء من جهتين. بيد أن السيد خوان إنريكيث اعترض طريقه،

وقال له أن يتذكر ما أخبره به الجاسوس، وأن يتوقف حتى ينظر إذا ما كان فوج أضخم من الرجال آتيًا من المنطقة المستوية. فأرسل الماركيز السيد ألونسو أبيث بينيغاس ليستطلع وجود غيمة من الغبار، أو إشارة إلى قدوم المزيد من المسلمين من خلف المكان.

فى تلك الآونة، كان رجالنا قد باتت لهم اليد الطولى فى المعركة، بينما لاذ المسلمون بالفرار. بثت الهزيمة التى ألحقها الجنود بالمسلمين الشجاعة فى أنفسهم، فأجهزوا عليهم. كما تبعوا السيد لويس فاخاردو مع انبلاج ضوء الصباح، وتوجهوا لملاحقتهم عبر الحقول، إلى أن وصلوا إلى بعض الأطراف التى تنحدر من جبل شلير. قام السيد خوان فاخاردو باعتلاء الجبل برفقة خمسمائة من الرماة، بينما سلك السيد ليون طريق دالِيَّاس فى صحبة مائتين أخرين. وقد قُطِعَ الطريق على ستة وستين من المجاهدين المسلمين فى أحد الشوارع المسدودة داخل المكان، فلقوا حتفهم هناك جميعًا. توفى فى ذاك اليوم ألف وخمسمائة من المسلمين، وفقدوا عشرة ألوية، وعددا من الخيول والمهرات -التى اصطحبوها مزودة بالسروج والألجمة، بالإضافة إلى الكثير من الأمتعة المحملة بالمؤونة. وقد مات من بين صفوفنا اثنان وعشرون جنديًا، وسيَّافان، وكان هناك العديد من الجرحى. كانت تلك الواقعة السعيدة ذات أهمية بالغة، لأنه لو خرج الأعداء منتصرين، ما كان ليبقى موريسكى واحد فى غرناطة بأسرها إلا وسيثور على الحكم. أما من بادروا بالهرب عبر الجبال، فقد وصلوا إلى بلدة أندرش وأنفاسهم مقطعة ويشعرون بقدر كبير من الإعياء. لو لم يأمر ماركيز بلش بإيقاف الرجال الذين كانوا يلاحقونهم، كانوا سيتمكنون من نحرهم بسهولة. بيد أن الماركيز لم يسمح لهم بالمضى قدمًا، لأنه كان يخشى باستمرار أن يقدم ابن أمية على مباغتته من ناحية أخرى. فحشد كافة الرجال، وعاد أدراجه إلى مقر إقامته.

تم تنبيه الماركيز لاحقًا إلى أنه فى أثناء هجوم المسلمين على المكان، قام بعض الجنود باللجوء إلى الأبراج، فى الوقت الذى انخرط فيه رفقاؤهم فى القتال. فأمر بإحضارهم للمثول أمامه، وسألهم عن الكتائب التى يتبعونها. وحينما أجابوه

-وهم يشعرون بخوف شديد من أن يأمر بمعاقبتهم- بإنهم ينتمون إلى الكتائب القادمة من لا مانشا؛ ضحك الماركيز، وخاطبهم على النسق التالى: "لا يدهشنى أنكم، يا من تجهلون طبيعة المسلمين، ولم يسبق لكم مواجهتهم، تهابون صراخهم وصيحاتهم القتالية. لكنكم إسبان، ولا ينقصكم شيء لكى تضحوا جنوداً سوى التعامل مع المسلمين. أما العقوبة التى أود أن أوقعها عليكم، نظير ما أظهرتم من تخاذل، فهى أن تتولوا تجميع جثث القتلى كافة، وتقومون بتكديسها وإحراقها. وهكذا ستتخلصون من مشاعر الخوف تلك التى اكتسبتموها". ثم أمر مستشاره القانونى ناباس دى بويبلا أن يصحبهم؛ فجمعوا جثث ألف وأربعمائة وتسع وأربعين جسداً لمسلم قتيل، وأحرقوها.

وكذلك فقد أضرم المستشار القانونى النيران فى تسعين مسلمًا، كانوا قد تحصنوا فى مبان عدد من الطواحين الكائنة خارج البلدة. ولمّا لم يكن المعسكر على حال جيد فى ذاك المقر، حيث كان يعانى نقصًا حاداً فى المؤن، فقد انتقل إلى بلدة أدرا؛ فى أعقاب مرور ثمانية أيام على تحقيق ذاك الانتصار. وقد ظل يقتات هناك لأيام عديدة على القمح الذى جلبه الجنود من معسكر داليّاس، إلى أن أُرسِل إليه المزيد من الجنود؛ وصدرت إليه الأوامر بالدخول إلى البشرات. ولم يكن الدور الذى لعبه ذاك الحادث فى شن تلك الحملة صغيراً.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد أنطونيو دى لونا على قرية لاس ألبانيويلاس، التى كانت مسالمة، نظراً لأن أهلها أخفوا محاربين من المسلمين.

فى تلك الآونة كان المسلمون يحدثون أضراراً بالغةً فى أرجاء غرناطة، ولوشة، والحامة. وذلك من خلال سبى، وقتل، وسرقة المسيحيين؛ حيث لم يعد هناك شىء آمن فى كل تلك المقاطعات. وقد أمسى من المعتاد أن يخرج أهالى بقاع الوادى إلى هاوية الساقية، لانتظار الدوريات التى تمضى بالمؤن إلى معقلى تابلاتى وأورخيبا . وفى بعض الأحايين كانوا يقتلون الجنود وسائقى عربات الإمداد، ويستولون عليها منهم؛ على الرغم من زعم المسلمين بأنهم قد خضعوا لحكم جلالة الملك. ولمّا كان المسيحيون يحسبون أن العديد من أهالى لاس ألبانيويلاس –وهو أحد المواضع الخاضعة– ضالعون فى ذاك الأمر، وإنه يتم استقبال الثوار هناك؛ أخذ السيد خوان دى أوستريا برأى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا ، وقرر أن يطبق عليهم عقوبة رادعة. حيث قال إنه إذا ما كانت الحروب تُدار بالحزم، فإن إعادة لانضباط العسكرى لسابق عهده يعد أمراً ضرورياً وشديد الموائمة لتلك المعركة، حتى يدب الخوف فى نفوس باقى الأهالى.

عقب التشاور فى الأمر مع جلالة الملك، صدرت الأوامر إلى السيد أنطونيو دى لونا ، لكى يتوجه للاضطلاع بمهمة إنزال العقوبة المزمعة. على أن ترافقه قوات المشاة والفرسان المقيمة فى قرى الغوطة، إلى جانب المائة رمّاح التابعين لإثيخا، والذين يخضعون لسلطة تيّو غونثاليث دى أغيلار. وبما أن حاجب البلدة بارتولومى

دى سانتا ماريا(*) كان قد قدم خدمات جليلة، وتحذيرات حقيقية، فإنه لم يكن من الإنصاف أن يلقى نفس العقوبة التى تُطبّق على الأشرار. فأرسل إلى الكاهن القانونى أوخيدا -وكان صديقًا حميمًا له- وإلى الرجال، لكى يولوه عنايتهم.

وصل السيد أنطونيو دى لونا إلى البادول فى أول أيام شهر يونيو. وقد علم إبان وصوله كيف أنه قد أذيع فى أرجاء لاس ألبانيويلاس فى اليوم السابق، إنه يحظر على أى من الأهالى استضافة مسلمين غرباء؛ وأنه يتعين على الموجودين بالبلدة الخروج منها. حينما تراءى له أنه قد تم تنبيههم، لم يشأ مغادرة البلدة فى تلك الليلة، حتى يحيط السيد خوان دى أوستريا علمًا بما حدث. فأرسل إليه ذاك الأخير يأمره بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه على الرغم من ذلك.

فى أعقاب تلقى ذاك الأمر الثانى، انطلق السيد أنطونيو ليلاً من مقر إقامته، مصطحبًا معه السيد لويس دى كاردونا Luis de Cardona -الابن الأكبر لدوق سوما Soma. وقد قابل فى الطريق أربعة من الموريسكيين، كانوا قادمين من لاس ألبانيويلاس إلى بادول، مع شحنات الخبز التى يسهمون بها كل أسبوع فى إطعام محاربى ذاك المعقل؛ فأمر بطعنهم بالرماح. ثم واصل تقدمه دون توقف، وأغار على الحى الكائن بالموضع الرئيس بعد طلوع الصباح. سنحت الفرصة للوبى -الثائر الجبلى الشهير- ،الذى كان موجوداً بالداخل مع أناس من المحاربين، للهرب إلى الجبل. ومكث الجانب الأكبر من الأهالى فى ديارهم فى الخفاء، بوصفهم رجالا بدوا وكأنهم لم يقترفوا ذنبًا، وإنه يكفى طردهم للمسلمين الغرباء حتى يتم الصفح عنهم. حينما أحس الأهالى بالجلبة التى أحدثها الجنود، الذين اقتحموا الشوارع غاضبين، خرج بعضهم لتبرئة ساحتهم؛ بيد أن هؤلاء وغيرهم لقوا حتفهم، ولم يتسن للكاهن القانونى أوخيدا حماية صديقه حاجب البلدة.

(*) انظر الفصل التاسع والثلاثين من الكتاب الرابع؛ والفصلين الرابع والثامن والثلاثين من الكتاب الخامس. (المترجمة)

فرّ الأناس غير المحاربين إلى الجبل، ظنًا منهم فى إمكانية نجاتهم فى تلك الناحية. لكن تِيّو غونثاليث دى أغيلار، الذى كان فى الطليعة مع الفرسان، انقض عليهم أعلى أحد السفوح؛ وحملهم على إنزال ما يربو على ألف وخمسمائة امرأة إلى الأسفل، بالإضافة إلى كم هائل من الأمتعة؛ فبسط المشاة نفوذهم عليها جميعًا. وكان من الجائز أن يهلك هو خلال تلك المطاردة، لأنه أثناء ارتقائه الجبل، تعلق فرسه بين صخرتين، فى موضع مفرط فى الضيق، فلم يتمكن من الدوران إلى الخلف أو المضى قدمًا. بات من الضرورى بالنسبة إليه الترجل عن حصانه والتخلى عنه، لكن سيّافين من أفراد كتيبته حضرا لنجدة الفرس فيما بعد ؛ فلم يقدرا على إخراجه، وأوقعاه إلى أسفل الهاوية؛ فهبط على جبل من الرمال كان قد حمله تيار المياه إلى ذاك الموضع، وقُطِعت إحدى رجليه الأماميتين. على الرغم من ذلك، فقد هبطا من أجله، وحملاه - بينما هو على تلك الشاكلة- لأنهما لم يرغبا أن يُقال فى أى وقت من الأوقات إن المسلمين قد استولوا على فرس القائد.

فى ذاك اليوم احتمى أحد المسلمين البواسل بداره، حاملاً قوسًا فولاذيًا فى يده. واستطاع، عبر نافذة صغيرة فى إحدى الغرف، أن يردى حامل راية كتيبة السيد بدرو دى بينيدا **Pedro de Pineda** قتيلاً. وكان قد دلف بالراية إلى الداخل بحثًا عما يسرقه. وقد قام بالأمر ذاته مع جنديين آخرين أرادا التراجع لاسترداد الراية. فاختلف إلى ذاك الرجل السيد بدرو دى بينيدا، وجندى من كتيبته يدعى ثاياس **Zayas**، وهو من أهالى إشبيلية؛ وأخذ يقذفه بالرماح بينما المسلم محتمى بترس دائرى وخوذة، كانت ذات نفع كبير. فلمّا أخطأ المسلم إصابة هدفه، بادره ثاياس بطعنة سيف اخترقته؛ فانقض عليه المسلم والسيف قد عبرجسده من جهة إلى أخرى، وصارع إلى أن انتزع خنجرًا كان يحمله فى وسطه. فطعنه به بشدة رغمًا عن إصابته بالسيف، حتى أنه أغمده فى جسده، وكاد أن يقتله لولا أن حالت إصابته دون ذلك. ففى نهاية الأمر، لم يقو على مقاومة إغماءة الموت؛ فكف عن الاشتباك، وهوى إلى الأرض؛ فقطع الجندى رأسه، واستعاد القائد رايته.

عقب الانتهاء من ذلك الأمر، أراد القادة والجنود نهب المنازل؛ لأنها كانت عامرة بالثروات، التى كان الأهالى قد جلبوها من أماكن أخرى، لكون ذلك الموضع خاضعًا، وما كانوا يرغبون فى تركها للأعداء. بيد أن السيد أنطونيو دى لونا لم يوافق على القيام بذلك؛ وقال أنه قد ورده تحذير حول مجىء ما يزيد على ستة آلاف مسلم من غواخاراس، استجابة للإشارات الدخانية التى تم إرسالها؛ وأنه ليس من الملائم أن يتوقف. ورغمًا عن وجود الكثير من المطالبة بذاك الأمر، كان لابد للمنازل أن تظل ممتلئة. عاد رجالنا إلى بادول -التى تقع على مسافة فرسخين من هناك- فى ذاك اليوم، مصطحبين ما يربو على ألفى وخمسمائة نفس أسيرة، وكمًا ضخمًا من الأمتعة والماشية من كل شكل ولون. أمر السيد خوان دى أوستريا بتقسيم ذلك الفىء بين الجنود، واتخاذ الأسيرات إماءً. كما أطلق سراح زوجة بارتولومى دى سانتا ماريا، وبناته، وبنات إخوته؛ بعد أن دفع لمن وقعن فى جعبته لحسن حظه ستمائة دوقية من الأموال الخاصة بجلالة الملك. بالإضافة إلى ذلك، فقد منحهن إذنًا حتى يتمكّن من العيش فى غرناطة، أو أينما يشأن فى تلك المملكة.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول وصول القائد العام لقوات قشتالة إلى شاطئ بلش، وتصميمه على الاضطلاع بالحملة بذاته وبرفقة الرجال الذين معه، فى أعقاب تنبيهه إلى ما جرى أثناء واقعة جبل فريخيليانا.

وصل القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية إلى أدرا فى أول أيام شهر مايو، ولم يبق هناك أكثر من ساعة واحدة. ثم أبحر بالخمس وعشرين سفينة التى ترافقه إلى مدينة المنكب، حيث تم تنبيهه إلى كل ما جرى لرجالنا فى جبل فريخيليانا، الكائنة بجبل منتميس. فأبحر صوب شاطئ بلش، ووصل إلى برج البحر -الذى يقع على مسافة تزيد قليلاً على نصف فرسخ من المدينة- فى الوقت الذى كان أريبالو دى ثواثو يعمل بحرص بالغ على تشتيت المسلمين الذين كانوا قد احتشدوا هناك. فبادر ذلك الأخير بالتوجه إلى ساحل البحر، بعد أن شاهد السفن. ولمّا كان القائد العام يرغب فى أن يعلم ما حدث بالضبط، والحالة التى وصلت إليها الأمور فى تلك الناحية، فقد أرسل فرقاطة إلى البر. صعد أريبالو دى ثواثو على متنها، وذهب للقائه فى السفينة الملكية؛ حيث تداولوا الأمر، والأهمية البالغة التى يمثلها تشتيت أولئك المسلمين، قبل أن تقوى شوكتهم أكثر مع إمدادهم بقوات تعزيز خارجية؛ كما تباحثوا حول اقتحام ذلك الجبل عنوةً، حيث احتشد به رجال وثروات جبل منتميس.

بادر القائد العام، الذى لم يكن يسعده شىء أكثر من توظيف أولئك الجنود المتميزين فى أمر يمكن الانتفاع به، بالحديث قائلاً إنه يسره الاضطلاع بتلك الحملة على عاتقه؛ بيد أنه لم تصدر إليه الأوامر فى ذاك الصدد. كما أنه لم يأت مزوداً بالمؤن أو الأمور الضرورية الأخرى. وقد تراءى له -بمقتضى عدد الأعداء المجتمعين والمكان

الذى يتمتع بذاك القدر من الحصانة– إنه سيصبح من الضرورى توافر عدد أكبر من الرجال، وتدابير شديدة الملائمة للأوضاع. لكنه فى النهاية ذلل كافة تلك العقبات بنيته الصادقة؛ كما أنه أدرك من حديث المأمور القضائى كم الفرسان والراجلين، الذين يمكن تجميعهم من البقاع التى تدخل تحت نطاق سلطته؛ وما يمكن تزويده به من مؤن ومتاع. لم يتبق سوى صدور القرار. وبينما كان يتم الإسراع فى تجهيز الأشياء الأخرى، أرسل الفارس القطالونى ميغيل دى مونكادا Miguel de Moncada –وكان أحد أبناء عمومته– عن طريق البريد إلى غرناطة، من أجل أن يحيط السيد خوان دى أوستريا علمًا بذاك الأمر، ويطلب منه الإذن لتنفيذه. فى أعقاب مغادرة السيد ميغيل دى مونكادا، أمر المأمور القضائى القائد العام بإنزال الجنود من على متن السفن؛ وقام باستعراض عام للقوات، فألفى لديهم ألفين وستمائة من جنود إيطاليا، وأربعمائة من جنود البحرية العاديين. للحيلولة دون إضاعة الوقت، ريثما تصله الأوامر من السيد خوان دى أوستريا، بعث بالسيد مارتين دى باديا Martín de Padilla –الذى أمسى فيما بعد حاكمًا على قشتالة، وقائدًا لأسطول إسبانيا– برفقة مائتين من رماة بلش وستين فارسًا، لاستكشاف الحصن، ورؤية إذا ما كان هناك نفر من المسلمين المتمردين يجولون خارج أسواره، ليتمكن من استطلاع الأنباء بعد استجوابهم.

وصل السيد خوان دى مونكادا إلى غرناطة، وقص على المجلس الأمر الذى جاء من أجله. ثم عاد أدراجه إلى بلش بالهمة ذاتها، بعد أن صدرت إليه الأوامر الخاصة باضطلاع القائد العام بتلك الحملة. أرسل المجلس لاحقًا يأمر السيد غوميث دى فيغيروا Gómez de Figueroa –المأمور القضائى لكل من: لوشة، والحامة، وقلعة يحصب– ، والأب سوتو Soto –الحاكم العام لبلدة أرشدونة– ، لكى يتوجها للانضمام إلى القائد العام برفقة أكبر عدد يتسنى لهما جمعه من المشاة والفرسان التابعين لهما. حيث أدرك المجلس أنه من الضرورى توفير أعداد من الرجال تفوق الموجودين حاليًا، من أجل تحقيق الهدف المرجو. لكن حينما وصلا إلى هناك، كان الوقت متأخرًا، على الرغم من العجلة الشديدة التى أظهراها عند الإعداد للحملة.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول قيام القائد العام بحشد الرجال كلهم فى توروكس، ثم توجهه من هناك لنصب معسكره أعلى جبل فريخيليانا.

فى أعقاب اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لشن الحملة، انطلق أريبالو دى ثواثو من بلش فى سادس أيام شهر يونيو، يرافقه ألفان ومائتا راجل وأربعمائة فارس، من المدينتين التابعتين لنطاق سلطته. وتوجه لنصب معسكره على مقربة من بلدة توروّكس، فى أحد الأماكن الحصينة القريبة من النهر. فى ذات اليوم رسى على البر القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية. وتوجه لاستطلاع الحصن فى صحبة السيد خوان دى كارديناس Juan de Cardenas –الذى أضحى الآن كونت ميراندا–، والسيد بدرو دى باديا، والسيد خوان دى ثانوغيرا، وفرسان وقادة آخرين. فشاهد –فى أثناء عودته– مقاتلى المدينتين؛ مما بث فى نفسه سرورًا بالغًا إزاء رؤية مدى التنظيم الجيد لصفوفهم. فرجع للمكوث على متن السفن خلال تلك الليلة، وفى اليوم التالى قام بإنزال جنود المشاة التابعين له على شاطئ قلعة توروّكس.

بعد أن اصطف هؤلاء وأولئك فى مواضعهم، سار كلا المعسكرين –كل على حدة– متوجهين إلى الأعداء. توجه القائد العام إلى عين مياه ألامو لإقامة معسكره عندها، بينما قام المأمور القضائى –من ناحية أخرى– بنصب معسكره إلى جوار البقعة التى يُطلَق عليها عين أثيبوتشال Acebuchal. وذلك على أرض ظليلة كائنة ما بين الشمال والشرق، على مقربة من ميناء بلانكو (الأبيض) Blanco. كان قادة قوات مشاة مالقة هم: إيرنان دوارتى دى بارّينتوس، والسيد بدرو دى كوايا، وغوميث باثكيث Gómez Vázquez،

ولويس دى بالديبيا، والمحلف بدرو دى بيّالوبوس Pedro de Villalobos. كما ترأس قوات بلش كل من: أنطونيو بيريث Antonio Pérez، وماركوس دى لا باريّرا، وفرانثيسكو دى بيّالوبوس Francisco de Villalobos. وكان سلاح الفرسان تحت إمرة لويس دى باث؛ بينما شغل منصب قيادة الجند كل من: القائد بيرينخل كانثير دى آموس Berengel Cáncer de Amos، ومارتين دى أنديًا Martín de Andía –وكلاهما من مواطنى بلش.

استطلع السيد مارتين دى باديًا الجبل، وأشار إلى كونه منيعا للغاية، وإنه لا يمكن اعتلاؤه من دون تكبد مشقة بالغة وخوض مخاطر شديدة. على الرغم من أن القائد العام كان يوافقه فى الرأى، فإن ما تحلى به من بصيرة نافذة وشجاعة غامرة، قاداه إلى إفهام الجنود أن الأمر ليس بالصعوبة التى يبدو عليها؛ وقال لهم إنه ما من طريق، مهما بلغت وعورته، تعجز فضيلة وعزيمة الجندى الجيد أن تسلك سبيلاً فيه. كان المكان الذى يعسكر به المأمور القضائى وعراً وغير آمن، بيد أنه كانت هناك فائدة كبيرة من وراء احتلاله، لأنه كان يمثل المدخل الذى يمكن أن يسلكه أهالى البشرات لإغاثة الأعداء. وكان القائد العام قد عبر إلى هناك من أجل استطلاع أحوال إقامة المعسكر، وإصدار الأوامر حول ما ينبغى القيام به؛ ثم عاد إلى معسكره. وقد بات الجميع فى تلك الليلة شاهرين أسلحتهم، دون أن يحدث شىء يذكر.

حدث اشتباكان فى صبيحة اليوم التالى. نشب الأول مع قوات بلش مالقة، أثناء قطعهم مياه الساقية عن المسلمين؛ بينما حدث الآخر مع السيد ميغيل دى مونكادا، الذى كان قد خرج لاستكشاف أحوال الجبل من الجهة الشرقية، فى صحبة سبعمائة رام وخمسين فارساً. ظل القائد يسير بالأسفل، حتى بلغ ربوة فريخيليانا؛ فشرع يتسلقها إلى أن وصل إلى ارتفاع كبير، وقام ببعض المناوشات مع نفر من المسلمين، حتى تمكن من اكتشاف المنطقة المنبسطة الكائنة على قمة الجبل. وقد أبصر أعداداً غفيرة من الخيام، والأكواخ المقامة من أغصان الأشجار، حتى أنه بدا وكأن جيشاً جراراً قد احتشد فى تلك البقعة. قُتِل بعض المسلمين فى غمار تلك الاشتباكات،

بينما تراجع المسيحيون إلى مخيمهم دون أن ينالهم أذى. كانت الهمم والأسلحة حاضرة من أجل شن الهجوم، الذى كان يمثل رغبةً عارمةً لدى رجالنا.

فى عشية عيد القديس بيرنابيه، أصدر القائد العام أوامره ليلاً إلى القادة، حول ما ينبغى على كل منهم الاضطلاع به، حيث أمر السيد بدرو دى باديًا أن يتوجه إلى ربوة بينيّوس Pinillos الكائنة ما بين الغرب والجنوب، وهو الموضع الذى كان السيد أريبالو دى ثواثو قد شغله فى البداية. وذلك برفقة ثلاث مجموعات من المشاة المنتمين إلى وحدات الجيش، بعد تدعيمها. أما الربوة الأخرى المسماة فريخيليانا، والتى تقع على الجهة اليمنى، فيحتلها السيد خوان دى كارديناس، شقيق السيد بدرو دى ثونييغا -كونت ميراندا-، الذى خلفه فى شغل ذاك المنصب، يصحبه أربعمائة من المقاتلين المتطوعين، ونفر من الرجال القادمين من إيطاليا. بينما تمركز القائد مارتين دى باديًا -الذى يشغل الآن منصب الحاكم العام لقشتالة، وكونت سانتا غاديا Santa Gadea- على ربوة أخرى صغيرة كانت توجد ما بين هاتين الأخريين. وذلك فى صحبة ثلاثمائة جندى من غاليرا، وبعض جنود مالقة وبلش، وأحد كتائب وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى. فيما يتعلق بالمنطقة التى يقع بها ميناء بلانكو (الأبيض)، حيث توجد الأرض الظليلة التى أتينا على ذكرها آنفًا، فقد أمر القائد العام أن يعتلى رجال المدينتين - الذين كانوا يعسكرون فى اتجاه تلك البقعة- الربوة التى تحمل اسم كونكا Conca. لمّا كان لابد للهجوم من أن يتم فى وقت واحد، وللحيا[illegible] البعض لوجود البعض الآخر، فقد أمرهم القائد العام أن يبعثوا بإ[illegible]ـحانية إبان وصولهم إلى مواقعهم. وألا يتحركوا حتى يسمعوا دوى طلقة مدفع صادرة من الثكنة الخاصة به. وسوف نستعرض فى الفصل القادم سير المعركة، والكيفية التى تم بها فتح الحصن.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول الهجوم الذى تم شنه على حصن فريخيليانا، وكيفية التغلب عليه بقوة السلاح.

فى أثناء تهيؤ الرجال، واتخاذهم مواضعهم، تأهبًا لسماع إشارة بدء الهجوم، أراد الجنود القادمون من إيطاليا، والذين كانوا تحت إمرة بدرو دى باديًا، أن يظفروا بشرف ومثوبة إحراز النصر. فاستبقوا الاشارة، وشرعوا فى الصعود إلى أعلى الربوة فى حماس، لكن سرعان ما لقى غالبيتهم مصرعه أو أصيب، ولم ينج من ذاك المصير سوى نفر قليل؛ لأن المسلمين كانوا فى انتظارهم بكثرة وراء تحصيناتهم، فأمطروهم بوابل من السهام والحجارة. هذا ولم يطلقوا عليهم الكثير من نيران بنادقهم، لأنه لم يكن لديهم سوى القليل منها؛ فأجبروهم على التقهقر بعد أن ألحقوا بهم خسائر، حتى أنهم كانوا قد بادروا بالتراجع. حينما شهد القائد العام الفوضى، أمر بإطلاق إشارة الهجوم، للحيلولة دون فقدانه لأولئك الجنود الجسورين. وقد تم الأمر فى سرعة وحماس شديدين، مما دل على مدى رغبة رجالنا العارمة فى الاشتباك بالأيدى مع الهمجيين الملحدين، فقد ساروا فى طرق وعرة ومنحدرة يخشى الفارون أنفسهم السير فيها.

كان هناك من نال منهم الإعياء نيلاً شديداً قبل أن يصلوا إلى القمة؛ مما ضاعف من حاجتهم إلى الاحتماء والابتعاد عن مسار الأحجار والصخور، التى كان الأعداء يقذفونها لكى تتدحرج نحوهم. ولم يكن ذاك الأمر هو أقل المخاطر التى واجهوها، حيث أضيف إلى ذلك عائق آخر شديد الضخامة. وهو أن الربوة التى كانوا يعتلونها لم تكن تسمح باندفاع الرجال فى سلاسة، كما أن المسلمين كانوا قد قاموا –فى دهاء شديد–

بنزع الشجيرات، وقطع الروابط التى شكّلتها الصخور، لكى لا يعثر الجنود على ما يسندون عليه أقدامهم، أو يجدوا ما يقبضون عليه بأيديهم. على الرغم من أن تلك الصعوبات قد خففت من اندفاع الجنود القدامى، فإن الكثيرين قد تغلبوا عليها بما تمتعوا به من جسارة؛ حتى وصلوا للالتصاق بتحصينات الأعداء.

هنالك نشبت معركة محتدمة للغاية، وحامية الوطيس بين كلا الجانبين. فلم يعد يُسمع سوى دوى الأسلحة، والأنات المفجعة لمن هووا نتيجة لعدم انتظام الصخور؛ حيث كان ذاك الموضع يصب فى صالح المسلمين أكثر منه فى صالح رجالنا. كان الهمجيون قد شرعوا فى الخروج بالفعل من الحصن، فتمكنوا بخفة حركتهم البالغة من جرح وقتل المسيحيين. وأخذ رجالنا فى التراجع، حتى يعيدوا تنظيم صفوفهم، حينما أدركوا أن حظهم عاثر أثناء القتال. عندئذ، بدأت كتائب مدينتى مالقة وبلش -فى أعقاب سماعهم لدوى المدفعية- فى تسلق حافة كونكا، والتى كانت تحوى فرسخًا مليئًا بالعقبات؛ فنجحوا فى تحقيق النصر المأمول، بعد أن ساعدتهم الفوضى التى أحدثها جنود إيطاليا. كان الأعداء يثقون فى التحصين الذى حبت به الطبيعة الجبل عند تلك المنطقة، دونما تدخل من البشر. فقد كانت تسد المدخل صخرة قائمة الانحدار ليس بها طريق أو سبيل، وقد بدت وكأنه من المستحيل أن يطأها بشر. وكان ذلك هو الداعى وراء توافد أفواج الرجال على المحل الذى تراءى لهم أنه يحتاج إلى مقاومة أكبر.

كان جنود المشاة مقسمين بين ثلاثة أماكن: حيث تواجد بعضهم عند ربوة ميناء بلانكو، والبعض الأخر عند الأرض الظليلة ذاتها(*)، بينما كان الفوج الأكبر منهم عند حافة ربوة كونكا. فى الوقت الذى احتل فيه المأمور القضائى المؤخرة مع الفرسان، ولم يتبق سوى مائتى جندى يضطلعون بمهمة حماية المخيمات. حينما وصل جنود الطليعة إلى الصخرة التى أتينا على ذكرها، وعلى الرغم من أنهم وجدوا بعض المقاومة، فقد بدأوا فى صعودها حبواً على أيديهم وأرجلهم، وعلى أفضل نحو تسنى لهم. فباتوا يساعدون

(*) انظر الفصل السابق. (المترجمة)

بعضـهم بعضـًا، ولكن ليس دون وقـوع قتلى بين بعض البواسل، الذين خطوا بدمائهم الطريق الذى سلكه رفاقهم. قام غونثـالو دى بُوثمِيـديانو Gonzalo de Bozmediano -وهو من بلش- برفع منشفة بيضاء على حد السيف. وكان حاملا الراية: إيرناندو دى كارابِيو Hernando de Caraveo -المالقى-، وغاسـبار ثِيريثو Gaspar Cerezo - وهو من بلش-، كل على حدة، همـا أول من رفـعا أعـلامـهمـا وبرزا إلى سـاحـة القتـال عند الحصن. وقد صحبهما قاداتهما والجنود، الذين تغلبوا بحماستهم على عقبة الصعود الصعبة، وتصدوا لهجوم الأعداء؛ بعد أن أمطروهم بنصيب وافر من الأحجار والسهام من تلك الناحية. ومضوا يحتلون مساحات شاسعة من الحصن، حتى أتيحت الفرصة للرجال الآخرين للصعود إلى الأعلى.

فى أعقاب ذلك، صعد نافخو الأبواق على الأقدام، وبادروا بعزف لحن الانتصار، وهو ما بث الجبن فى نفوس الأعداء وثبط من هممهم. بينما تعالت همة الرجال البواسل التابعين لوحدات الجيش الإسبانى فى نابولى، الذين كانوا قد رجعوا على أعقابهم ليعاودوا الهجوم على الأعداء. وقد ألمّ بهم مصير سيئ؛ كما حدث فى الهجوم الأول؛ فأمرهم القائد العام بالتراجع. اكتسب المقاتلون روحًا جديدة، وبدا الأمر وكأن القتال قد بدأ لتوه. فمن بين المائتى مسلم أو يزيدون، الذين خرجوا للهجوم على رجالنا، لم يعد أى منهم إلى الحصن؛ حيث جعلهم المسيحيون طعمة للسيوف. وحينما ألفوا المدخل خاويًا، أغاروا على الباقين على نحو حملهم على إلقاء أنفسهم إلى أسفل تلك الوهاد؛ بعد أن تعلقت آمالهم بأقدامهم، وباتوا يبحثون عن المواضع الأكثر وعورة بالجبل، والتى يمكنهم الفرار إليها والاحتماء بها.

كان أكبر هجوم شنه الأعداء، هو الإغارة على منخفضين ضيقين. كان أولهما يقع بالقرب من ربوة فريخيليانا، والآخر عند ميناء بلانكو؛ وهناك التحم معهم الفرسان التابعين لأريبالو دى ثواثو، وقتلوا منهم الكثير. وقد لجأ أناس غيرهم إلى أماكن أخرى، فوقعوا كذلك فى قبضة قوات المشاة. فى النهاية، قُتِل ألفا مسلم من بين الأربعة آلاف الذين كانوا بالحصن، بينما تمكن الباقون من الذهاب إلى البشرات؛

وكان الكثيرون منهم يعانون من جراح بالغة، حتى أنهم ماتوا فى الطريق. كان هناك بعض المسلمات اللواتى قاتلن مثل الذكور البواسل، ومددن يد العون إلى أزواجهن، وإخوانهن، وأبنائهن. فلمّا شهدن ضياع الحصن، ألقين بأنفسهن على أشد الصخور وعورةً؛ لأنهم كن يفضلن الموت مقطعات إربًا إربًا، على الوقوع فى قبضة المسيحيين. بينما لم تنقص أخريات الشجاعة اللازمة لتوخى جانب الحذر، فحملن أبناءهن على أكتافهن، وبتن يقفزن من صخرة إلى صخرة كالماعز.

تم أسر ثلاثة آلاف نفس. وكان الفىء المكون من الحرير والذهب والفضة واللؤلؤ يساوى ثمنًا غاليًا. كما استولى رجالنا على كميات كبيرة من المواشى، والأغنام، والقمح، والشعير، ومؤن أخرى كان المسلمون قد جمعوها داخل الحصن بكميات كانت تكفى لإعاشتهم لأيام عديدة. لم يحرز رجالنا ذلك النصر دون أن تُهدَر دماؤهم، حيث لقى ما يزيد على أربعمائة فرد مصرعهم خلال تلك الهجمات؛ كان من بينهم السيد بدرو دى ساندوبال Pedro de Sandobal –ابن أخ أسقف أوسما. كما أفرزت المعارك ما يربو على ثمانمائة من الجرحى، وكان الجانب الأكبر منهم ينتمى للجنود القادمين من إيطاليا. كما أُصيب جميع القادة تقريبًا، وكان من ضمن الجرحى: السيد خوان دى كارديناس، والسيد أنطونيو لوثون Antonio Luzón، والسيد لويس غايتان، وكارلوس دى أنتيّون، وفرسان آخرون.

فى أعقاب فتح الحصن وسلب ما كان به، قضى القائد العام ليلته تلك فى المعسكر، بعد أن عهد إلى سيادة القائد ألونسو لوثون بالإماء والفىء الذى غنموه هناك. فى اليوم التالى، سار إلى توروكس، بعد أن هدّم التحصينات، وتخلص من المؤن والأشياء الأخرى التى لا يمكن حملها؛ كما أنه أصدر أوامره بمداواة الجرحى. وقد صعد من هناك على متن السفن، ليبحر إلى مالقة. فأُحسِنَ استقباله، وقام المواطنون باستضافة الفرسان والجنود فى عطف ومودة. فاعتنوا بهم وداووهم، وهو ما كان أمرًا ضروريًا، نظرًا للمشقة التى تكبدوها فى البحر والبر. توجه أريبالو دى ثواثو إلى بلش برفقة الجنود الذين يدخلون فى نطاق سلطته. وقد أفاد الجنود الأصحاء من تلك المناسبة كثيرًا.

وكان الأمر سينطبق على الجميع، لو أن توزيع الإماء -اللواتى أمسين من نصيب جنود وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى- كان قد تم فيما بعد. بيد أنه تأخر لعدة شهور، حتى هلكن، كما هو معتاد بالنسبة للأشياء المشتركة بين الناس. ولمّا حان الوقت لتسلمهن، كن قد لقين حتفهن أو غادرن المكان.

كان حصن فريخيليانا قد فُتِحَ بالكاد، حينما قام رجال لوشة، والحامة، وقلعة يحصب، وأرشدونة -الذين يقرب عددهم من ثمانمائة جندى من المشاة والفرسان- بالذهاب إلى جبل منتميس. عندما وصلوا إلى هناك، ورأوا إنه ليس هناك ما يقومون به، جالوا كما يحلو لهم. فجمعوا الأغنام التى تسنى لهم العثور عليها فى الحقول، كما نهبوا من ديار المسلمين العديد من المخابىء العامرة بالثياب والحلى، التى أخفاها أولئك القوم إبان صعودهم إلى الجبل. ثم قفلوا عائدين إلى منازلهم، بعد أن غنموا ما لا يقل عما حصل عليه من شاركوا فى القتال.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول إرسال ابن أمية من يتولى إشعال الثورة فى مواضع نهر المنصورة، ووصفًا لتلك الأراضى.

نهر المنصورة يعنى نهر الانتصار[١٦]. وهو ينبع من إحدى عيون المياة الموجودة على الطريق المؤدى من كانييس فى بسطة إلى سيرون، وتدعى فوينكاالينتى[١٧] Fuencaliente. يجرى النهر فى واد عامر بالغيلات، متوجهًا إلى قرية تيخولا؛ مخلفًا وراءه فى الروابى الكائنة على الجهة اليمنى -والتى تبتعد قليلاً عن مساره- البلدان التالية: سِيرون، والديرة، وبايارکا، ولوكار Lúcar، وسييرّو Sierro، وسوفلوى Sofloy، وألمونيا، وبورشينا -التى تحمل صفة المدينة-، وأولولا، وفينيكس Fínix، ولانتيّرا Lanteyra، وكانتوريا Cantoria، ولِيخار Lījar، وكودبار Códbar، وإيرّاكس Errax، والبورش el Borx، وألبولياس Alboleas، وسوخورا Sujura أو سورخينا Surgena، وأوبيرا، ولاس كويباس، ولوبرين Lubrín، وأوريّكال Urriecal، وأنتى Ante، وبيدار Védar، وسيرينا Serena، وتيريسا، وكابريرا، وبنى تاغلا Benitagla، وألبانتشيس Albánchez. ثم يصب فى البحر الأبيض المتوسط عند برج مونتروى Montroy الذى يقع على مسافة فرسخ إلى الغرب من مدينة بيرا.

أما القرى الموجودة فى الجبال الكائنة إلى الشرق من المسار الذى يقطعه النهر ليصب فى البحر، فهى: لوكوس Lucus، وسومونتين Somontin، وبارتالوبا Partaloba،

(١٦) هذه من المرات القلائل التى يصيب فيها مارمول من حيث اللغة. (المراجع)

(١٧) يعنى العين السخنة أو الدافئة. (المراجع)

وكوديار Códbar، وأوريا، وألبوش، وبلش الروبيو، وبلش البلانكو. كما يحده من الناحية الغربية جبلى باكاريس Bacares وفيلابريس، الذى يُطلَق على الموضع الرئيس به تاهالى Tahalí. أما المواضع الأخرى، فهى: سينيس Senes، وتشيركوس Chercos، والكودية، والحبرة Alhabra، وبنى الوزير العالية Benalguacil el alto، وبنى الوزير المنخفضة Benalguacil el bajo، وبنى كانون Benicanon، وسينيمينا Senimina، وخينيثيت Xenecit، وكاسترو، وأوليلا دى كاسترو، وأوليلا ديل كامبو.

يقع كل من منخفض وإمارة بسطة إلى الشمال من مجرى النهر، ويضم البلدان التالية: كانييس، وبنى أماوريل Benamaurel، وثوخار، وفريلة Freyla، وكويار، وغويسكار، وكاستيّخا، وأورثى، وغاليرا، وكورتيس، بالإضافة إلى بلدان أخرى. بينما يحده من الناحية الشرقية جبلى بلش la sierra de los Vélez وموخاكار Mojácar، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط.

سائر تلك البقاع عامرة بالقمح والخضروات. كما ينتج الأهالى الكثير من الحرير عالى الجودة؛ ولديهم وفرة فى رؤوس الماشية. وتكتسى سفوح الجبال على جوانب النهر بغيلات من أشجار الفاكهة والخضروات ذات جمال خلاب، حيث ترويها مياه العيون التى تنبع من تلك الجبال، وتنحدر إلى أن تصب فى النهر الرئيس. والفاكهة بجميع أنواعها مبكرة وتتميز بطعم لذيذ للغاية. تتمتع غالبية البلدان بوجود قلاع قديمة كائنة بمواقع حصينة بفعل الطبيعة؛ وبعضها بلغ قدرًا من التحصين، قد يجعل منها غير قابلة للاختراق بالقليل من المجهود.

ود الثوار تأليب كافة مواضع ذاك النهر على حكم جلالة الملك، إبان اضطلاعهم بنشر الثورة فى خيرغال؛ بيد أن خشيتهم من ماركيز بلش، الذى كان قد دخل إلى تلك البقعة -كما أسلفنا فى موضع سابق(*)-، حالت دون قيامهم بذلك. وقد سيطر عليهم ذاك الخوف طوال فترة إقامته فى تيركى. فلمّا خرج ماركيز مونديخار من البشرات،

(*) انظر الفصل الرابع والثلاثين، الكتاب الرابع. (المترجمة)

وحشد ماركيز بلش رجاله فى بيرخا، ومن بعدها فى أدرا، حضر المسلمون إلى جبال خيرغال وباكاريس، وبدءوا فى شن الهجمات على نهر المنصورة. هنا واتت ابن أمية الشجاعة لإرسال من يتولى إثارة أهالى تلك الأراضى. فى غمار سعيه لتحقيق ذاك الهدف، توجه أحد المسلمين المصاحبين له إلى موضع ألمونيا، وانطلاقًا من رغبته فى مواساة زوجة وبنات خيرونيمو المالح -اللواتى كن محتجزات لدى القائد دييغو راميريث- ، قال لهن أن يتشجعن، لأنهن سينلن حريتهن خلال خمسة عشر يومًا، وأن المالح سيأتى بذاته على رأس أناس كثيرين لتأليب تلك القرى. كان دييغو راميريث قد بالغ فى إحسان معاملة تلك الموريسكيات، وأودعهن فى دار أحد الموريسكيين من أصدقائه. حينما أردن أن يشكرن له حسن صنيعه، أخبرنه بما قاله لهن المسلم، حتى يتسنى له التزام جانب الحذر فى الوقت المناسب. فما كان من الرجل إلا أن أرسل كتابًا إلى السيد خوان دى أوستريا، يرجوه أن يبعث له ببعض المقاتلين، لكى يتمكن من تأمين تلك الأراضى قبل دخول المسلمين إليها، وإلا سوف تضيع.

لمّا لم يكن فى الإمكان تنفيذ ذاك الأمر بالسرعة التى تقتضيها الحاجة، فقد حدث فى يوم الثانى عشر من شهر يونيو من عام ١٥٦٩، أن هبط من البشرات كل من الغورى -قادماً من أندرش-، والبليغى el Peligui -قادمًا من خيرغال؛ كما صحبهما المالح، وقادة آخرون من المسلمين، بالإضافة إلى أربعة آلاف مقاتل. فأغاروا أولاً على بورشينا، وكانوا سيبيدون من بها من المسيحيين، لولا وجود السيد رومان Román -الكاهن القانونى لماكاييلا Macaela-، الذى كان أسيرًا بالبشرات، وعاد فى الليلة الماضية. حيث حذرهم إلى تركه لأولئك القوم وقد احتشدوا من أجل المجىء لمهاجمة البلدة مع بزوغ الفجر. عندما رأى الأهالى إن الحصن لا يوجد به قائد أو مقاتلون، لم يجرؤوا على الاحتماء بداخله، على الرغم من موقعه المنيع. فتركوه مهجورًا، وفروا إلى أوريا، وبيرا، وأجزاء أخرى. وحينما وصل المسلمون، كان المسيحيون قد غادروا البلدة منذ ثلاث ساعات فقط؛ فلم ينجحوا سوى فى نشر الثورة بين الموريسكيين القاطنين بها.

أما من لم يرغب منهم فى القيام بذلك، فقد انهالوا عليهم ضربًا بالعصى، واصطحبوهم معهم موثوقى الأيدى. كان هناك ثلاثة من الموريسكيين البارزين لا يرغبون فى الثورة على الحكم، فهجروا نساءهم وبنيهم؛ حيث لجأ اثنان منهم إلى أوريا، واحتمى الثالث بكانتوريا. أما الباقون جميعًا، فقد توجهوا -إما بإرادتهم، أو رغمًا عنهم- إلى البشرات، حاملين معهم نساءهم وثرواتهم. قام الموريسكيون بسرقة الكنيسة وتدميرها، ثم نهبوا منازل المسيحيين، وقتلوا امرأة عجوزًا لم تشأ مغادرة الموضع مع بقية الأهالى. نظرًا لعدم رغبتهم فى ترك ذلك الحصن مهجورًا، لما يتمتع به من مقومات؛ فقد أودعوا بداخله مقاتلين للحفاظ عليه. وقد أفادوا من أخشاب سقف الكنيسة -التى قاموا بتخريبها- لإجراء بعض الإصلاحات به، وتزويده بعدد من الغرف؛ كما شيدوا برجًا من الحجر المدقوق فى تلك الناحية. فى أعقاب قيامهم بذلك، مروا إلى أولولا والمواضع الأخرى، فأثاروا من بها من الموريسكيين، ثم نهبوا وخربوا الكنائس وبيوت المسيحيين، إلا أنهم لم يقتلوا أحدًا منهم، لأن المسلمين جميعًا كانوا قد أخذوا حذرهم، بعد تنبيه امرأة المالح وبناته لهم.

قضى موريسكيو سيرون ثلاثة أيام دون أن يعلنوا ثورتهم. حيث أعاقهم عن القيام بذلك شخص من مدريد يدعى دييغو دى ميرونس Diego de Mirones، وكان ينوب عن ماركيز بيينا فى حيازة قلعة ذاك الموضع، التى كانت تخضع لنطاق سلطته. كان السيد دييغو يولى دوريات الحراسة عنايةً شديدةً؛ بعد أن بعث بزوجه وأبنائه إلى قشتالة، برفقة جنود طاقم الحماية، ومن يعيشون فى ذلك الموضع من المسيحيين -الذين يبلغ عددهم جميعًا مائة وثلاثين رجلاً. حينما تنامى إلى علمه أن الموريسكيين يشعلون الثورة فى مواضع النهر، حشد جميع النسوة المسيحيات داخل القلعة. أثناء وجود القادة المسلمين فى منطقة النهر، أرسلوا إليه من يخبره إنه انطلاقًا من حرصهم الشديد على صالحه، وأسفهم لما بدر منه، فإنهم ينصحونه بتسليمهم ذاك الحصن. وإنه إذا ما قام بذلك، فسيدعونه يرحل مع كل من بحوزته فى الداخل، وسيصحبونه إلى أن يودعوه موضعًا آمنًا بالقرب من بسطة. أما إذا لم يقم بذلك، فلن يفلت هو ومن معه من الموت. تسلّم دييغو دى ميرونس رسالتهم بمحيا طلق، وأمر بإطعام المسلمين اللذين

حملاها إليه، ولبى مطلبهما بمنح كل واحد منهما زوجًا من النعال. ثم أجابهما بأنه يتقدم بوافر الشكر للقادة المسلمين لما أولوه من عنايه لشئونهم، بيد أنه يتولى شئون القلعة بالنيابة عن ماركيز بيينا، وأنه قد كاتبه ليرى ما يأمر به فى ذاك الصدد. وحينما يرد إليه القرار -وهو ما سيحدث فى القريب العاجل-، فسيمسى أكثر تأكداً عند إعطائهم الرد.

عندما رجع الرجلان المسلمان بتلك الإجابة، أدرك القادة أن الغرض من وراءها هو المماطلة. وفى غضون يومين، قام المالح والحانون بالإغارة عليه مع كل من بصحبتهما من الرجال، وأشعلوا الثورة بين موريسكيي البلدة؛ ثم حاصروه على مدى اثنى عشر يومًا. وعندما أدركوا فى النهاية أنه يصد هجومهم، وأنهم لا يمتلكون مدفعية تتيح لهم إمكانية قصفه؛ كما أنهم لن يقدروا على إحراز النصر إذا ما دارت معركة بالأيدى؛ فكوا عنه الحصار. انتقلت الأفواج إلى تاهالي -وهو الموضع الذى يتبع السيد إنريكى إنريكيث-، فأثاروا من به من الموريسكيين. ثم حاصروا القلعة وهاجموها، وكان بداخلها السيد ألبارو دى لونا Álvaro de Luna، وهو أحد مواطنى باثار Bazar، مع خمسين جنديًا. كان أول ما فعلوه هو مهاجمة المتراس، وأخذوا يخرقونه حتى صنعوا فتحة فى الحائط؛ فدلفوا إلى الداخل، وأخرجوا الخيول التى كانت داخل إحدى الحظائر. ثم أرسلوا إلى صاحب القلعة يطالبونه بالاستسلام، وأخبروه أنهم سيحسنون معاملة كل الموجودين داخل القلعة، لكونها تابعة لسلطة السيد إنريكى إنريكيث. كما أنهم سيتركونهم يرحلون فى حرية إلى حيث يشاءون، حاملين أسلحتهم ومنقولاتهم. دارت مناقشات كثيرة حول ذاك الأمر، وقبل الحاكم -ما بين الخوف والرجاء- الاتفاق، على أن يمهلوه يومين اثنين فقط لتنفيذه؛ فرفع عنه المسلمون الحصار.

أقدم السيد ألبارو دى لونا على تلك الفعلة، رغمًا عن تعارضها ومشيئة رجل موريسكى يدعى خوان الوزير Juan Alguacil، وأحد أولاده. وهما من أثرى أثرياء البلدة، وكانا قد تحصنا معه داخل القلعة. فطالباه بعدم الاستسلام، لأنهما يعرضان عليه الدفاع عنه مع الموجودين داخل القلعة. لكنهما لم يتمكنا من إقناعه، بل ثارت ثائرته عليهما،

وأودعهما سجنًا مظلمًا تحت الأرض. ثم غادر القلعة، فى غضون المهلة التى منحها إياه القادة، يرافقه جميع الجنود وخمس سيدات يرتدين ثياب الرجال، وتوجه إلى مدينة ألمرية. اقتحم المسلمون القلعة، وعثروا على هذين الموريسكيين فى السجن المظلم، فأخرجوهما منه، وشنقوهما فيما بعد -وقد انتبه مليًا إلى الأمر من لا يزالون هناك. أكد لنا أناس، أخبرونا بحضورهم لتلك الواقعة، إنهما ماتا مسيحيين. وقالا إنهما يموتان لعدم خيانتهما للرب أو للملك.

فى أعقاب الظفر بقلعة تاهالى، انتقل المسلمون إلى كانتوريا. فحاصروا تلك البلدة ليوم واحد فقط، قبل أن تستسلم لهم، لأن مواطنيها كانوا جميعًا من المسلمين. وقد مضوا فى نشر الثورة فى مواضع النهر الأخرى، متبعين ذاك النسق، باستثناء قرى: أوريا، ولاس كويباس، وسيرون -التى دافعت عن قلاعها آنذاك.

الفصل السادس والعشرون

يتناول الكيفية التى عاد بها المسلمون لمحاصرة قلعة سيرون، وتوجه السيد ألونسو دى كارياخال لإغاثتها، والأوامر التى صدرت إليه بشأن عدم الذهاب إلى هناك، وعودته إلى بلدته خودار.

نزولاً على رغبة ابن أمية فى الانتهاء من احتلال كافة قرى نهر المنصورة، من أجل شن الحرب فى تلك المنطقة، حشد أكبر عدد تسنى له من الرجال، وذهب للتمركز فى جبل باكاريس. ثم أرسل من هناك قائداً يدعى ميثيبى Mecebe للإغارة على قلعة سيرون؛ فحاصرها برفقة خمسة آلاف مسلم، فى اليوم العاشر من شهر يونيو من ذاك العام، وسط سرور عارم وصيحات حرب مدوية. كان دييغو دى ميرونيس قد أرسل جندياً إلى بسطة، لكى يوجه تحذيراً من هناك إلى جلالة الملك وإلى السيد خوان دى أوستريا، حول الحالة الراهنة؛ فخرج الرجل ليلاً، وتمكن من تنفيذ المهمة التى جاء من أجلها دون أن يعيقه المسلمون عن القيام بذلك. بيد أنه فى تلك الآونة كان السيد خوان دى أوستريا على دراية بتعجل المسلمين للهجوم على القلعة -من خلال بعض الجواسيس-، وكان قد سعى لمعالجة ذلك الأمر. فاتخذ قراراً فى المجلس يفيد بوجوب توجه عدد كاف من الرجال لإغاثة القلعة، تحسباً لاضطرارهم للاشتباك مع العدو هناك. نظراً لعدم توفر جنود نظاميين يمكن ذهابهم على وجه السرعة التى يقتضيها الأمر، قرر المجلس تكليف السيد ألونسو دى كارياخال Alonso de Carvajal -سيد خودار- بتلك المهمة؛ وحثه على حشد أكبر عدد يتسنى له من بين أقربائه، وأصدقائه، ورعاياه، من أجل الاضطلاع بمهمة الانقاذ.

كان ذلك القرار سيحالفه قدر كبير من النجاح، لو لم يتعارض معه قرار آخر. لأن جلالة الملك، حينما تم تنبيهه إلى أمر الحصار، كتب فى تلك الأثناء إلى ماركيز بلش، لكى يسعى لنجدة ذلك الحصن؛ حيث تراءى لجلالته أنه ما من أحد يمكنه إغاثته على نحو أسرع، نظرًا لوجود معسكره فى أدرا، إلى جوار الحصن. تم تنبيه السيد خوان دى أوستريا إلى إصدار ذلك الأمر، فى الوقت الذى كان فيه السيد ألفونسو[١٨] دى كارباخال قد غادر بسطة يرافقه ألف وخمسمائة من حملة البنادق، ومائة وخمسون فارسًا، والكثيرون من فرسان ووجهاء أبدة وبياسة، من أصدقاء وأقارب عائلته. فى نفس الآونة تقريبًا، بينما كان السيد خوان دى أوستريا مجتمعًا فى أحد الأيام مع أعضاء المجلس، وصلته رسالة من ماركيز بلش، يخبره فيها بأن صاحب الجلالة قد عهد إليه بإغاثة قلعة سيرون. وأنه على ضوء بعد المسافة بينها وبين أدرا، فإنه يرى أن يحل محله فى الذهاب واحد من ثلاثة أشخاص: إما خوان رودريغيث دى بيّافويرتى مالدونادو – المأمور القضائى لغرناطة–، أو السيد لويس دى كوردوبا، أو السيد رودريغو دى بينابيديس Rodrigo de Benavides. على أن يرافقه ألف وخمسمائة راجل، وثلاثمائة فارس، وهو عدد كاف للاضطلاع بتلك المهمة.

تسبب ذلك الخطاب فى إشاعة الفوضى بين أعضاء المجلس، نظرًا لما شكّله من عائق؛ فبات الرجال فى دهشة، ولم يقدروا على اتخاذ قرار حول مضى السيد ألونسو دى كارباخال قدمًا فى تنفيذ الأوامر التى صدرت إليه من السيد خوان دى أوستريا، أو توجيه الأمر إليه بإيقاف مسيرته. قال لويس كيخادا إنه لا ينبغى إصدار قرار فى أعقاب الأمر الذى وجهه جلالة الملك إلى ماركيز بلش. بينما أصر سيادة الرئيس على ضرورة تنفيذ القرار الذى أصدره السيد خوان دى أوستريا إلى السيد ألونسو دى كارباخال، لأن المجلس الأعلى ما كان ليصدر أمرًا معارضًا. وهو يمتلك النفوذ والأهلية للاضطلاع بذلك الأمر، انطلاقًا من موقعه كقائد عام. كما ينبغى على وجه الخصوص

---

(١٨) ورد الاسم قبل ذلك فى صيغة "ألونسو" (المراجع)

النظر إلى العائق الذى سيمثله فقد تلك القلعة، إذا ما حدث أى تأخير فى اتخاذ القرار. وضرب المثل بما جرى فى أثناء حكم الإمبراطور كارلوس، عندما كان هو بذاته يشغل منصب قائد الميدان لوحدات الجيش الإسبانى فى نابولى؛ وقد عوّل خلال تلك الأزمة على أحد الفرسان الاستثنائيين، بينما أوكل نائب الملك بدرو دى توليدو **Pedro de Toledo** الأمر إلى شخص آخر. فصدرت الأوامر أن يتم تنفيذ قرار نائب الملك، الذى أصدره انطلاقًا من منصبه كقائد عام.

كان لدى غالبية أعضاء المجلس الرأى نفسه ، بيد أن السيد خوان دى أوستريا دعم ما قاله السيد لويس كيخادا، وقرر عودة السيد ألونسو دى كارباخال. حيث وصلته فيما بعد رسالة أخرى من ماركيز بلش، يخبره فيها إنه قد عهد بالمهمة إلى صهره -السيد إنريكى إنريكيث- الموجود على مقربة من المحل فى بسطة، بعد أن تبين له صعوبة ذهاب أحد الفرسان الثلاثة الذين أشار إليهم لتولى عملية الإنقاذ. وقد عُرِفَ إن كل ذاك الحرص الذى أولاه ماركيز بلش للأمر، كان من أجل إبطال القرار الصادر بشأن السيد ألونسو دى كارباخال -وكان قد علم بصدوره- ؛ وذلك رغبةً منه فى إرسال أحد أعوانه. كان ماركيز بلش رجلاً مغواراً وفارساً شجاعاً وفطنًا، لكن لم يكن ممكنًا أن يقرر المرء أقصى ما حدد سمات شخصيته: أكانت شجاعته، وإقدامه، وفطنته؛ أم غروره وسعيه وراء الشهرة، مصحوبًا بتطلعه إلى نيل المناصب؟

لنعد الآن إلى روايتنا، حيث كتب السيد خوان دى أوستريا رسالةً فيما بعد إلى السيد ألونسو دى كارباخال، يأمره فيها أن يوقف مسيرته أينما تصله تلك الرسالة، وأن يعود إلى دياره، وأن يشكر -بالنيابة عنه- للرجال الذين يرافقونه الحماسة التى دفعتهم للقيام بتلك الحملة؛ إلا إنه هناك عدة أمور تراءت للمجلس وجعلت من المناسب إيقافها. وحينما بلغته الرسالة أثناء وجوده فى كويار -قبل أن يصل إلى بسطة بمسافة فرسخ واحد - عاد أدراجه وهو يشعر بضيق شديد، لعدم تركهم إياه يكمل المهمة التى كان قد خرج من أجلها. لندع الأن أمر إغاثة تلك القلعة، الذى احتوى على الكثير من

المتناقضات، نظراً لصدور قرارين بصدده، ونتطرق إلى طرد الموريسكيين من البيّازين في غرناطة. وكان سيادة الرئيس ودوق سيسا قد أمعنا فى إصرارهما على تنفيذ ذلك الأمر، حيث بدا لهما أن إولئك القوم ليس لهم جدوى، وإنه من الممكن أن ينجم عن وجودهم فى المدينة أضراراً بالغة.

الفصل السابع والعشرون

ويتناول كيفية إخراج الموريسكيين من البيّازين، وتوطينهم داخل المملكة.

كانت كل الأمور التى تشغل المجلس فى تلك الأيام تتعلق بالقرار الذى تم اتخاذه بشأن طرد الموريسكيين من البيّازين، وذلك على ضوء تدهور شئون الحرب فى كل يوم. لأن المسلمين لم يعودوا ينشرون الثورة فى القرى من أجل إخراج أهلها منها، كسابق عهدهم؛ بل للدفاع عنها، وباتوا يأملون ويثقون فى تحقيق أمور أعظم؛ وهو ما كان على ما يبدو الداعى وراء التراخى الذى شهدناه بين صفوف رجالنا، حيث لم يبتّوا فى أى من الأمور المطروحة لمعالجتها. فى النهاية، جاء أمر من صاحب الجلالة يقضى بإيداع جميع موريسكيى غرناطة والبيّازين -الذين يزيد عمرهم عن عشرة أعوام ويقل عن الستين- بالداخل، بأدنى قدر ممكن من الشغب. وأن يتم اصطحابهم إلى مواضع أندلوثيا، وغيرها من القرى المتاخمة خارج نطاق تلك المملكة؛ وأن يُسلّموا إلى القائمين على شئون العدالة مع الكشوف الخاصة بهم، حتى يمكن حصرهم. ومن أجل أن يتم ذاك الأمر دون إثارة قلاقل، فلابد من إفهامهم إنه يتم إبعادهم عن المخاطر حرصًا على صالحهم وراحة بالهم؛ وأنه فى أعقاب إخضاع الأراضى، فسوف يتم إحصاؤهم، وإثابة المخلصين منهم.

فى أعقاب إقرار الطريقة التى سيدخل بها هذا الأمر حيز التنفيذ، أمر السيد خوان دى أوستريا -عشية عيد القديس خوان فى شهر يونيو- بتهيئة المحاربين الموجودين بالمدينة وبقاع الغوطة إلى ما سيجرى. بعدها صدر منشور عام يقضى بأن يحتشد فى الكنائس سائر الموريسكيين والمدجنين الذين يقطنون فى مدينة غرناطة

أو البيّازين أوالقصبة -سواءً من الأهالى أو الغرباء. ولما كان هؤلاء القوم يشعرون بخوف شديد -لكونهم أشخاصا يدركون جيداً الجرم الذى اقترفوه، ونظراً لخشيتهم أن يتم حبسهم وإنزال عقوبة رادعة بهم- استسلموا، لأنه لم يتسن لهم القيام بأمر أخر.
عندما شهد الأب ألبوتودو الكرب الشديد الذى ألمّ بهم، توجه إلى سيادة الرئيس بدرو ديثا، ونقل إليه مشاعر الرهبة والغم التى انتابتهم. فقال له ذاك الأخير أن يذهب إليهم، ويخبرهم بالنيابة عنه ألا يخافوا، لأنه يضمن لهم حياتهم. وإذا كانوا يرغبون أن يمنحهم صك أمان ممهوراً باسمه، فسوف يعطيهم إياه؛ وبالفعل قام الأب بكتابة الصك، ودفعه لسيادة الرئيس لكى يوقعه؛ وهو ما قام به من أجل طمأنتهم. وقد بث فيهم ذاك الأمر قدراً من السلوى، لأنهم ظنوا إنه لن يخدعهم لكونه رجل دين. بيد أن أكثر ما أمّنهم كان العهد الذى منحهم إياه السيد خوان دى أوستريا، فى أعقاب حبسهم داخل الكنائس؛ حيث أخبرهم إنه -باسم جلالة الملك- يشملهم بكنفه ويسبغ عليهم الحماية الملكية. وقد أكد لهم أنه لن ينالهم أى ضير، وأن إخراجهم من غرناطة يهدف إلى إقصائهم عن الخطر الذى يتعرضون له بوجودهم فى وسط المحاربين. كما أن السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس[١٩] أكد لهم أن ما يحدث هو لصالحهم، وهو ما أدى إلى طمأنة الرجال ذوى البصيرة النافذة، الذين قاموا بدورهم ببث السكينة فى نفوس الباقين.

قضى الموريسكيون ليلتهم تلك فى صحبة بعض كتائب المشاة، التى تواجدت على أبواب الكنائس لتأمينهم. فى صباح اليوم التالى، بعد أن تم تنبيه سائر المقاتلين إلى الأمر، واصطفت سراياهم فى المنطقة السهلية الكائنة بين باب البيرة والمشفى الملكى، قام كل من: السيد خوان دى أوستريا، ودوق سيسا، وماركيز موندیخار، ولويس كيخادا، والأب بيربيسكا دى مونياتونيس -كل على حدة، تفادياً لوقوع أعمال شغب- بإخراجهم من هناك، واقتادوهم فى المنتصف، ما بين كتائب الرماة، حتى أودعوهم

---

(١٩) لاحظ أن سليل أسرة بنى نصر لم يتوقف عن مساندة الموريسكيين خلال الأحداث. (المراجع)

شيئًا فشيئًا فى المشفى الملكى. وكان بالداخل فرانثيسكو غوتيريث دى كويار Francisco Gutiérrez de Cuéllar –الفارس التابع لمذهب القديس سانتياغو، ونائب رئيس قلم المحاسبين– الذى كان قد حضر إلى غرناطة فى ذلك اليوم، بموجب القرار الذى أصدره جلالة الملك، وقد رافقه نفر من الحاسبين والكتبة، بغية تدوين أسماء وأعمار المحتجزين، حتى يمكن إحصاء وحساب من يروحون ومن يمكثون، وتسليم القوائم الخاصة بهم إلى مأمورى القضاء فى البقاع التى سيقصدونها. كان المشهد محزنًا لدى مشاهدة كل أولئك الرجال –من كافة الأعمار– مطأطئين رؤوسهم، وقد عقدوا أيديهم، وانهمرت العبرات على وجوههم. وقد اكتست وجوههم بالحزن والألم، عندما ألفوا أنفسهم يغادرون ديارهم العامرة، وأسرهم، ووطنهم، وبيئتهم، وضياعهم، وكل الأملاك التى كانت فى حوزتهم؛ كما أنهم لم يكونوا يعلمون علم اليقين المصير الذى سيلاقونه. وقد ضرب ذاك الأمر مثلاً رادعًا، لتدرك الرعية من خلاله مدى الخير الذى سيحل عليهم، عندما يكونون رعايا أوفياء لملوكهم وأسيادهم الطبيعيين. فهم، فى نهاية الأمر، من يتولون حمايتهم والدفاع عنهم؛ وفى المقابل، فإن الخائن لن يجد من يجيره.

على الرغم من كل الحرص والعناية التى أولاها السيد خوان دى أوستريا، وأفراد المجلس لتلك المهمة، حدث فى ذلك اليوم أمر كان سيتوجب معه قتلهم جميعًا. حيث أن السيد ألونسو دى أريانو Alonso de Arellano –أحد قادة مشاة إشبيلية– ود أن يأتى بجديد يميز كتيبته عما سواها من الفرق الأخرى، فوضع صليبًا يحمل هيئة المسيح المصلوب على سن أحد الرماح، وغطاه بخمار أسود، ثم أمر بحمله فى مقدمة الصفوف. حينما دلف من باب البيرة يصحبه الموريسكيون التابعون لكنيستين وسط الجنود، أبصر أولئك التعساء ذلك الشعار، وفطنوا إلى أنهم يسوقونهم إلى مصارعهم؛ حتى أن الموريسكيات اللواتى كن يبكين من خلفهم أدركن نفس الشىء. وقد شهدنا إحداهن تطلق صيحاتًا مدوية، وتقول باللغة العربية[٢٠] وهى تشد شعرها: "يا لكم من بائسين،

(٢٠) لاحظ أن اللغة العربية هى اللغة الطبيعية التى يتكلمها الموريسكى عندما يلم به أمر مفاجىء. (المراجع)

إنهم يقتادونكم كما تُساق الخراف إلى المذابح! ألم يكن من الأفضل لكم بكثير الموت في دياركم التى ولدتم بها؟". إبان وصول تلك الجموع إلى باب المشفى الملكى، والخوف يعتمل فى نفوسها، حدث أن أحد رؤساء الشرطة يدعى بيلاسكو Velasco، وجه ضربةً بالعصا إلى واحد من الغلمان الموريسكيين كان يفتقر إلى الفطنة قليلاً، وكان يحمل تحت ذراعه نصف قالب من الطوب؛ فألقى الموريسكى الحجر عليه وجرحه فى أذنه. فبادر إليه جنود الحراسة المسلحين بالرماح ذات البلطة، وقتلوا الموريسكى.

بيد أن الأمر لم يكن ليقف عند ذاك الحد، لأن الجنود كانوا سيبيدونهم عن بكرة أبيهم، عندما ظنوا أن من أُصيب هو السيد خوان دى أوستريا -الذى كان يرتدى الألوان ذاتها الخاصة بثياب بيلاسكو. إلا أن الأمير المقدام هبَّ ليحول بينهم وبين الرجال، ووقف فى المنتصف وهو يقول بصوت عال: "ما بالكم أيها الجنود؟ ألا ترون أنه إذا كان الرب يسوءه شرور المارقين، فإن غضبه يمسى أشد على أولئك الذين يعتنقون شريعته؟ فأنتم ملزمون بنهج الطريق القويم أكثر من أى صنف آخر من البشر، خاصةً فيما يتعلق بمسألة الأمانة. انظروا إذن إلى ما تفعلون! ولا تنتهكوا الأمان الذى منحتهم إياه، لأنه لم يحدث إلى الآن ما يستدعى انتهاكه. وحتى إذا ما تأخرت عدالة السماء، فإن دلائل عقاب الرب ستظهر للعيان!" فنجح من خلال تلك الحجج وغيرها -التى تأرجحت ما بين الترغيب والترهيب- فى تهدئتهم. رغبةً فى الحيلولة دون اندلاع القلاقل فى المدينة، وقتل الجنود لمن يشاهدون فى الطرقات من الموريسكيين، أمر الأمير خوان كلاً من السيد فرانثيسكو دى سوليس وإياى[٢١] أن نتوجه إلى أبواب المدينة، وألا ندع أحداً يدلف إليها. علاوةً على ذلك، فقد أمر رئيس الشرطة بأن يذهب لمداواة جرحه؛ وألا يخبر أحداً بأن هناك من تسبب فى إصابته، بل أن يقول إن جواده هو قد نطحه برأسه.

---

(٢١) يتحدث مارمول عن واقعة حضرها بنفسه. (المراجع)

فى النهاية هدأت الأمور، وتم إيداع سائر الموريسكيين فى ذلك المشفى؛ وهو مبنى شديد الفخامة وفسيح للغاية، كانت الملكة الكاثوليكية إيسابيل قد أمرت بتشييده، فى أعقاب الاستيلاء على تلك المدينة بفترة وجيزة؛ وذلك لعلاج المصابين بشتى الأمراض، وإيداع المجانين فيها. وقد اقتادهم المحاربون من هناك إلى نواحى أندلوثيا، مخلّفين وراءهم آنذاك الكثير من الغلمان والشيوخ، والعديد من ذوى المناصب الذين يلزم وجودهم فى المدينة، وآخرين من أصحاب الحظوة[٢٢]. وقد بقى كذلك المدجنون[٢٣]، الذين زعموا أنه لا ينبغى معاملتهم بنفس النهج المتبع مع الموريسكيين، لأنهم دخلوا فى زمرة الرعايا المسيحيين فى أوقات الرخاء، ولم يكونوا مجبرين بدافع الحاجة كأولئك القوم. كما أن أسلافهم قد قاتلوا تحت راية الأمراء المسيحيين فى الحروب، فى الوقت الذى كان بإمكانهم الانضمام إلى صف الملوك المسلمين؛ فتم التغاضى عنهم عندئذ من هذا المنطلق.

بعد الانتهاء من ذلك الأمر، بدأت تسود المدينة أجواء أكثر أمنًا. بيد أن من كانوا قد شهدوا الرخاء، والنظام، والفخامة التى اتسمت بها الديار، والضياع، والمزارع - التى قضى فيها الموريسكيون أوقات فراغهم، وتمتعوا بأسباب اللهو والتسلية- شعروا بالأسى الشديد، بعد أن رأوها فى غضون أيام قلائل وقد باتت خربة ومهدمة، وفى حالة يرثى لها. حتى أن تعرض تلك المدينة، التى كانت تفيض بالسعادة، لذلك القدر الكبير من الدمار بدا أمرًا جيدًا، حتى يدرك الناس أن مظاهر الرخاء أكثر عرضة لنكبات الحظ العثر. كان أهالى البيّازين لديهم نبوءة، وكان مفادها -وفقًا لما أخبرنا به نفر منهم- أنه سيأتى عليهم زمن يشهدون فيه سيل جدول من الدماء الموريسكية ينهمر من

---

(٢٢) أى أن إجلاء الموريسكيين لم يكن كاملاً. هذا يفسر -جزئيًا- بقاء التراث الأندلسى فى غرناطة حتى بعد نفى الموريسكيين إلى مناطق قشتالية. (المراجع)

(٢٣) لا نفهم بالضبط ما الذى يعنيه مارمول بكلمة "مدجنين"، فالواقع أن هذا المصطلح لم يعد دقيقًا اعتبارًا من فبراير عام ١٥٠٢ عندما حُظرت ممارسة الشعائر الإسلامية بشكل رسمى. على أى حال فقد تحول "المدجنون" إلى مسيحيين أو إلى موريسكيين بعد ذلك التاريخ، ولم يعد المصطلح مستخدما. (المراجع)

أعلى القصبة، ليغطى صخرةً كبيرةً كائنةً على جانب ذلك الطريق، إلى جوار عمود الفضل pilar de la Merced. ومن الممكن أن نقول إن نبوءتهم قد تحققت فى ذلك اليوم، لأننا شاهدنا نزول أعداد هائلة من الموريسكيين من كل بقعة فى ذاك المرتفع إلى الأسفل، حتى أنهم غطوا الطريق والجبل؛ وإذا أمعنا فى الأمر ملياً، فقد كانوا يمثلون الدماء الحقيقية التى وردت فى نبوئتهم. فلندعهم الآن وحظهم العثر، حيث أن من بقوا سوف يلحقون بهم عما قريب؛ ولنعد إلى نهر المنصورة، الذى كنا قد تركنا الحديث عنه عند حصار قلعة سيرون.

الفصل الثامن والعشرون

يتناول كيفية إرسال السيد إنريكى إنريكيث لأخيه السيد أنطونيو إنريكيث لإغاثة قلعة سيرون، وتمكن المسلمين من إلحاق الهزيمة به.

كان المسلمون فى تلك الأونة يضغطون بشدة على المسيحيين المحاصرين داخل قلعة سيرون. وحينما تنامى إلى علم السيد خوان دى أوستريا، أن السيد إنريكى إنريكيث كان ينقصه الاستعداد الجيد لتلك الحملة، وأنه لا يستطيع الذهاب للاضطلاع بعملية الإنقاذ بذاته -وفقًا لأقوال ماركيز بلش-، بعث إليه بالسيد لويس دى كوردوبا - وكان أحد الفرسان الثلاثة الذين عينهم السيد خوان لتلك المهمة فى بادئ الأمر(*). فى غمار استعداد الرجال وتهيئهم للرحيل، وإصدار القرارات حول الأمور اللازمة لشن الحملة، بادر السيد خوان بإرسال القائد أنطونيو مورينو أولاً. بيد أنه ألمّ به مرض فى بسطة، نجم على أثره تأخر وصول النجدة، التى أتت على مهل لا يتناسب وضرورة الحال، وأسفر عن وقوع الصعوبات التى سنسوقها لاحقًا.

عندما وجد القائد دييغو دى ميرونيس نفسه فى مأزق عصيب، نظرًا لعدم توفر مياه تكفى لكل ذلك العدد الموجود بحوزته فى الداخل؛ وكان المتسببون فيما حدث هم الجنود والأهالى أنفسهم، الذين شُغلوا بنهب منازل البلدة فى أعقاب مغادرة الموريسكيين، ولم يرغبوا فى ملء الجب - الذى كان سيعود عليهم بالنفع أكثر من الغنائم الحقيرة التى أودعوها داخل القلعة-؛ حمل ثلاثة من الجنود ضخام الجثة ذوى

(*) انظر الفصل السادس والعشرين. (المترجمة)

أصول عربية على التدلى من أسوار القلعة ليلاً، وأمرهم أن يحاولوا قدر استطاعتهم التخفى، والمرور من معسكر الأعداء -كل على حدة-؛ وأن يتوجهوا إلى مدينة بسطة لإنذار من بها بالحال التى تركوه عليها؛ وأن يقولوا للسيد إنريكى إنريكيث أن يبعث له بقوات إغاثة. فى أثناء العودة، عليهم أن يسعوا لجلب بعض الذخيرة على أكتافهم - على أفضل نحو يتسنى لهم. كما نبههم القائد أنهم إذا تبين لهم عدم تمكنهم -حيال رجوعهم- من بلوغ القلعة فى أمان، فليبعثوا له بإشارة دخانية فى أثناء النهار، من ربوة خابيا Javea، التى تقع على مسافة فرسخين من سيرون من ناحية بسطة. وإذا ما رد عليهم بإشارة أخرى من برج القسم فليتقدموا؛ وإلا فليعودوا أدراجهم.

غادر أولئك الجنود الثلاثة القلعة -على النحو الذى أسلفناه- فى يوم عيد القديس بدرو، الموافق التاسع والعشرين من شهر يونيو. وقد حالفهم حظ وافر، حيث تمكنوا من العبور وسط معسكر المسلمين، دون أن يتم التعرف عليهم. فوصلوا إلى بسطة، ونقلوا إلى السيد إنريكى الرسالة التى يحملونها. لكن ذلك الأخير لم يذهب لنجدة القلعة، لأنه كان مريضاً؛ كما أنه لم يرسل إليها المدد حينئذ، لأنه كان يفتقر إلى أعداد كافية تتيح له القيام بذلك، وكان ينتظر أن يرد إليه المزيد من الخارج. فأمر بتزويد كل منهم بصرّة من البارود، وصرفهم، بعد أن أمرهم بإخبار القائد ميرونيس أنه سيأتى لنجدته على وجه السرعة، وأن عليه تأخير المواجهة قدر استطاعته. حدث فيما بعد أن الموريسكيين القاطنين فى مدينة بسطة أبصروا الجنود الثلاثة، وأدركوا ما هم بصدده، لأنه كان لديهم جواسيس داخل منزل السيد إنريكى ذاته. ورغبةً منهم فى تحذير المسلمين، أخذوا أوصافهم، وأرسلوا أحد الموريسكيين إلى القائد ميثيبى لتنبيهه إلى الأمر، حتى يحرص على إلقاء القبض عليهم إذا ما حضروا إلى المعسكر.

لجأ ذلك القائد إلى خدعة حربية كان من الممكن أن تعود عليه بالنفع، حيث أمر بتوجه بعض المسلمين من المتحدثين بالإسبانية إلى القلعة، ليقولوا لمن بها إن المسيحيين الثلاثة الذين كانوا قد أرسلوهم إلى بسطة لقوا حتفهم، ويخبروهم بما لديهم من أوصافهم؛ ويقنعوهم بالاستسلام، لأنه ما من سبيل لنجاتهم، بل إنهم هالكون لا محالة. بيد أن المحاصرين أدركوا لاحقًا أن ما يقوله المسلمون ليس صحيحًا، لأن الجنود

أرسلوا الإشارة الدخانية التى أُمروا بإرسالها من ربوة خابيا، ولم يجيبهم من بالقلعة؛ فأدركوا بوضوح أنهم قد عادوا أدراجهم إلى بسطة، بمقتضى الأوامر التى صدرت إليهم. وقد شعروا بشىء من العزاء بعد أن أدركوا إنهم تمكنوا من المرور وتبليغ رسالتهم.

أعقب ذلك بفترة وجيزة أن عزم السيد إنريكى على إرسال قوات إغاثة برفقة شقيقه السيد أنطونيو إنريكيث، لكنها كانت هزيلة للغاية: حيث تكونت من خمسمائة من حاملى البنادق، وستين فارسًا؛ وقد صدرت إليها الأوامر بالدخول إلى سيرون من موضع لوكار -الذى يبعد عنها بمسافة ثلاثة فراسخ على ضفاف ذات النهر. وصل السيد أنطونيو إنريكيث برفقة أولئك الجنود إلى لوكار، فلم يعثر بها سوى على النساء داخل المنازل، واثنى عشر رجلاً كانوا قد تحصنوا داخل القلعة، فلم يشأ أن يوقف مسيرته لقتالهم. حينما شاهدهم السيد أنطونيو يرسلون إشارات دخانية ضخمة، وينادى بعضهم على بعض فى الأراضى، أدرك أنهم سيحشدون عددًا ضخمًا من الرجال لمواجهته، وعاد أدراجه إلى بسطة دون أن يبلغ سيرون. وبالفعل لم يخنه تفكيره، لأن الميثيبى لبى نداء الإشارات الدخانية بكل من فى صحبته من الرجال. فى أثناء وجود رجالنا فى ضيعة خاوكا Jauca، وكانوا بالكاد قد وصلوا إلى هناك، أغار المسلمون عليهم. فلمّا ألفوهم غافلين، أفلحوا فى هزيمتهم بعد أن قاموا بهجوم مباغت؛ فقتلوا ما يربو على مائتى جندى، وحملوا الباقين على الفرار. ثم عادوا إلى سيرون ذلك اليوم محملين بالأسلحة والغنائم، وهم يشعرون بالسرور الغامر للنصر الذى أحرزوه. فيما بعد أرسل ميثيبى رسالةً إلى ميرونيس، يخبره فيها ألا يصر أكثر من ذلك على المقاومة غير ذات الجدوى، لأنها لن تفيده كثيراً. وهو يعلمه فى خطابه بموت كل المسيحيين الذين حضروا لإغاثته، كما أنه سوف يعقد معه أى اتفاق يطلبه إذا ما قرر تسليمه تلك القلعة.

الفصل التاسع والعشرون

يتناول كيفية خروج دييغو دى ميرونيس للبحث عمن يغيثه، وأسره، وتسليم المحاصرين لقلعة سيرون.

أدرك المحاصرون عندئذ أنه لابد أن يكون رجالنا قد منوا بهزيمة ما، لأن الذخيرة التى كان يطلقها المسلمون كان صداها أفضل من تلك الموجهة صوبهم. وقد أدى ذلك الأمر، بالإضافة إلى مشاهدتهم للفرحة العارمة التى طغت على المعسكر بأكمله، إلى شروع من بداخل القلعة فى الشعور باليأس. فى خضم الحيرة الشديدة التى انتابتهم، شهدوا إطلال خمسين فارساً كان السيد إنريكى قد أرسلهم لإلقاء نظرة على القلعة من بعد، وأيضًا من أجل الإبقاء على الأمل فى نفوس المحاصرين، حتى مجيء السيد لويس دى كوردوبا بصحبة الجنود القادمين من غرناطة؛ حيث تنامى إلى علمه أن السيد خوان دى أوستريا قد أرسله لتولى مسألة الإنقاذ. تسبب أولئك الفرسان فى تنامى القلق الذى كان يمر به المحاصرون، لأنهم حينما أبصروا تراجعهم قبل أن يبلغوا القلعة، ظنوا أنهم يلوذون بالفرار. وبمرور الوقت بات خوفهم يتنامى، وبدأ نقص المياه الذى أغمّهم كثيراً يتفاقم. قرر دييغو دى ميرونيس مغادرة القلعة بذاته ليلاً، يصحبه ثلاثون من حملة البنادق، ليخترق بهم معسكر الأعداء، ويذهب للبحث عمن يغيثه قبل أن يموت الناس عطشاً.

غادر السيد دييغو القلعة عقب اتخاذ ذلك القرار، وأخذ يتبادل إطلاق النيران مع المسلمين، فعبر من خلالهم جميعًا دون أن يفقد رجلاً واحداً؛ وكان الجمع سينجو بسهولة بالغة، لو لم يتوقف الجنود -الذين كانوا سيموتون من شدة العطش- عند النهر

لفترة طويلة لكى يرووا عطشهم. فسنحت الفرصة للمسلمين للحاق بهم، حيث تتبعوا آثارهم من جهات مختلفة، وساروا وراء الفتائل المشتعلة فى البنادق؛ فاشتبكوا مع أربعة عشر جنديًا منهم وأردوهم قتلى، بينما تمكن الستة عشر جنديًا الآخرون من الهرب تحت جنح الظلام، فوصلوا فى اليوم التالى إلى بسطة. أما دييغو دى ميرونيس -الذى كان ممتطيًا جواده- فقد ظل يسير طوال الليل تائهًا من هوة إلى هوة، ولم يتمكن من اتباعه سوى غلام واحد. بعد أن أرهقه كثرة الدوران -نظرًا لعدم خبرته بتلك الأراضى- أطلق العنان لفرسه ليذهب أينما شاء. حينما ظن إنه بات على مقربة من كانييس، التى تقع فى منخفض بسطة، ألفى نفسه فى كرمات سيرون، لأن الجواد -الذى كان قد تربى فى ذلك الموضع- رجع إلى المكان الذى يحن إليه. اكتشف المسلمون الذين كانوا فى أبراج المراقبة وجوده، فهبطوا إليه، وتتبعوا خطاه. وفى النهاية ألقوا القبض عليه، بعد أن أضحى الفرس عاجزًا عن الحركة من فرط الإرهاق. سر الأعداء كثيرًا لذاك الاعتقال، لأنهم فطنوا إلى أن المحاصرين سيستسلمون على أثره؛ وحملوا السيد دييغو إلى خيمة الميثيبى، وكان بها كذلك المالح -الذى كان قد حضر فى تلك الآونة إلى المعسكر. فاتفقا معه على أن يحمل المسيحيين على تسليم القلعة، وفى المقابل سيمنحونه حريته، هو وكل من بالداخل -صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً- على أن يخلّفوا وراءهم الأسلحة، وألا يحمل أى منهم معه ما يزيد على ثمانية ريالات. وقالوا له، ما بين الترغيب والترهيب، إنه إذا لم يوافق فإنه سيلقى ميتة قاسية.

لمّا ألفى السيد دييغو نفسه أسيرًا، ونظرًا لمعرفته بالمعوقات التى يتعرض لها من بالقلعة، ومدى صعوبة بقائهم على قيد الحياة، تراءى له أن ذلك الحل مقبول؛ لأنه كان يظن أن المسلمين سيفون بوعدهم. فحمله الأعداء مكبل الأيدى إلى أحد المنازل الكائنة بجوار بوابة القلعة، وأخذ ينادى على غونثاليث González -كاتبه الخاص- وعلى مسيحيين آخرين بأسمائهم، وقص على مسامعهم النكبة التى ألمت به، ورجاهم أن يهبط أحدهم لتأمين عقد الاتفاق، لأن القادة قد أحكموا الحصار، على نحو بدا له أنهم لن يفكوه. خرج الكاتب فى أعقاب ذلك، وبرفقته ثلاثة من المسيحيين، للاتفاق على بنود معاهدة تسليم القلعة مع القادة على النحو الذى أسلفناه، وبالشروط المذكورة.

وفى الحادى عشر من يوليو عام ١٥٦٩ سلم المسيحيون القلعة للمسلمين. بيد أن أعداء الرب لم يحفظوا لهم شيئًا مما عاهدوهم عليه، فاتخذوا من النساء والأطفال عبيدًا، وقتلوا الرجال جميعًا فى وحشية، وكان ضمن القتلى اثنان من القساوسة مقيمى شعائر القداس، وأربعة من النساء العجائز. عندما سأل أحد أهالى سيرون المسلمين المالح حول كيفية اقترافه مثل تلك الفعلة الشنعاء، أبرز له خطابًا من ابن أمية يأمره فيها ألا يدع على قيد الحياة أى مسيحى يتجاوز عمره اثنى عشر عامًا، وأن يعقب ذلك إرسال دييغو دى ميرونيس وسائر النساء إليه فى باكاريس. وقد قُتِل فى ذاك اليوم مائة وخمسون مسيحيًا، وأُسرت ثمانون امرأة. فى اليوم التالى وصل إلى مشارف سيرون السيد إنريكى إنريكيث والقائد أنطونيو مورينو، مصطحبين معهما طلائع قوات الإغاثة؛ فلمّا ألفوا المنازل تغص بجثث المسيحيين القتلى، والقلعة محتلة من قبل المسلمين، عادوا أدراجهم. وقد قام السيد لويس دى كوردوبا بالأمر ذاته، فرجع وهو فى الطريق، بعد أن عرف بأن سيرون قد فُقِدَت.

الفصل الثلاثون

يتناول الأوامر التي أصدرها السيد خوان دى أوستريا بشأن تزويد قلعتى بلش وأوريا بالرجال، وكيف عهد بتلك المهمة إلى السيد خوان دى آرو.

فى أعقاب فقد قلعة سيرون، أضحى المسلمون سادةً على كافة قرى نهر المنصورة. نظراً للخطر المحدق ببلدتى بلش وأوريا - بسبب وجود العديد من الموريسكيين وقلة المسيحيين بهما-، و بناءً على عدم توافر أعداد كافية من المقاتلين للدفاع عن حصن بلش البلانكو -الذى توجد به بنات ماركيز بلش-، وقلة ما به من مياه، لأن البئر الكائنة بداخله كانت متصدعة ولا تحتفظ بالماء، طلب سيادة الرئيس بدرو دى ديثا من السيد خوان دى أوستريا بإلحاح شديد أن يأمر بتدعيم هاتين القريتين، لكى لا يحدث العدو بها أضراراً. وذلك على ضوء الأوضاع الراهنة: فماركيز بلش كان يعسكر فى البشرات، ولن يتمكن من انقاذهما، حيث توجد إمكانية لإغارة المسلمين عليها من أجل احتلالهما وإثارة من بهما من المسلمين؛ هناك أمر آخر لا ينبغى القيام به، ألا وهو إخراج الماركيز من البشرات واستدعاؤه إلى تلك الناحية، وهذا شىء سينجم عنه العديد من الأضرار.

بادر السيد خوان بإصدار قرار بهذا الصدد، فكتب رسالة إلى الأب بدرو ديل أوديو Pedro del Odio -أحد مستشارى المحكمة الملكية- الذى كان موجوداً فى مدينة لورقة للفصل فى إحدى الجرائم، من أجل أن يمد هاتين البلدتين على وجه السرعة بالرجال، والمؤن، والذخائر، وسائر الأمور الأخرى اللازمة للدفاع عنهما. كما وجه أمراً إلى السيد خوان دى آرو Juan de Aro -قائد سلاح فرسان ماركيز كاربيو Carpio -

الذى كان فى طريقه إلى غرناطة، لكى يعسكر بكتيبته فى بلش البلانكو، وأن يحرص على حماية تلك الناحية، ويسعى لتلافى أى أضرار قد يلحقها به المسلمون. لم يبعث بدرو ديل أوريو سوى بأربعين جنديًا مع دييغو راميريث -قائد ألمونيا- حيث لم يتسن له إخراج عدد أكبر من الرجال من لورقة. فتوجه القائد راميريث برفقة أولئك الرجال، وستين آخرين من حملة البنادق كانت مدينة مرسية قد أرسلتهم للمشاركة فى الحملة، لاحتلال حصن أوريا. وحينما تراءى له أنه ليس آمنًا بدرجة كافية هناك، أخرج كميات من الذخيرة : بارود وفتائل البنادق ورصاص، بالإضافة إلى الكثير من الإماء الموريسكيات اللواتى كان ماركيز بلش قد أودعهن بالداخل، واصطحب كل تلك الأشياء معه إلى بلش البلانكو. ما بين هؤلاء الجنود، وأولئك الذين قدموا مع السيد خوان دى أرو، تم عندئذ تأمين هذين الموضعين -اللذين كانا سيتعرضان لخطر بالغ لو أغار عليهما المسلمون قبل أن تصلهما تلك النجدة. حيث سعى المالح لاحتلال حصن أوريا برفقة ما يربو على ثلاثة آلاف رجل، وعندما ألفى مقاومة من قبل الجنود الموجودين داخله، أشاع الثورة فى البلدة، وحمل كل الأهالى الموريسكيين معه إلى الجبال، وذلك فى يوم عيد القديس سانتياغو من ذاك العام ١٥٦٩.

الفصل الحادى والثلاثون

يتناول كيف أرسل ابن أمية رسالة إلى السيد خوان دى أوستريا، مطالبًا إياه بإطلاق سراح أبيه وأخيه الأسيرين فى غرناطة.

بعد أن بسط ابن أمية سيطرته على حصون نهر المنصورة، نصَّب المالح قائداً عاماً على تلك الجبهة، وتوجه هو إلى القصور فى أندرش، ومنها قام بإرسال رجاله إلى المناطق الواقعة تحت نفوذه. وهو ما دعاه إلى الزهو، فقرر إنه من المناسب أن يسعى لإطلاق سراح أبيه وأخيه، اللذين كانا ما زالا محتجزين فى سجن المحكمة العليا فى غرناطة -كما أسلفنا. من أجل الاضطلاع بذاك الأمر قام بإرسال غلام مسيحى - كان قد أُسِرَ فى سيرون- بثلاث رسائل: واحدة إلى السيد لويس دى أوستريا، والثانية إلى السيد لويس دى كوردوبا، أما الثالثة فكانت موجهة إلى ماركيز بلش، وقد رجاه فيها أن يرشد ذلك الصبى إلى الطريق المؤدى إلى غرناطة بالرسالة التى يحملها. كما زوَّد الغلام بجواز مرور مكتوب باللغة العربية، لكى لا يمسه المسلمون بسوء خلال الطريق[٢٤]. وكان فحواه -بعد ترجمته إلى اللغة الرومانثية- على النسق التالى:
"بسم الله الرحمن الرحيم. من القائد الأعلى المعظم -أدام الله عزه- مولاى الملك محمد بن أمية، فرج الله على يديه كرب المنكوبين والمغمومين فى الغرب. اعلموا جميعاً أن هذا الغلام مسيحى من سيرون، وأنه متوجه إلى غرناطة فى شئون خاصة بى، ومتعلقة بصالح المسلمين والمسيحيين، كما هى عادة المكاتبات بين الملوك. على كل من يراه

(٢٤) هذا معناه أن عامة المسلمين فى عام ١٥٦٩ كانوا يجيدون العربية. (المراجع)

أو يقابله أن يدعه يواصل مسيرته فى حرية، وأن يعينه، ويقف إلى جواره من أجل أن ينفذ المهمة التى خرج من أجلها. لأن من يقوم بخلاف ذلك، فيعيقه أو يلقى القبض عليه، سيكون قد حكم على نفسه أن يُطاح برأسه. كما ذُكِرَ بالأسفل: "كتبه ابن تشابيلا Aben Chapela، بأمر من الملك". كما جاء على الجهة اليسرى أسفل السطور حروف كبيرة، بدت وكأنها بخط يد ابن أمية، لتسطر: "هذا صحيح". فيما يعد تقليداً لنسق الملوك المسلمين فى إفريقيا، الذين لم يعتادوا على كتابة أسمائهم عند التوقيع، بل كتابة تلك الكلمات، التى تدل على مزيد من العظمة.

إبان وصول الفتى بالكتاب الذى يحمله إلى قلهرّة، أرشده ماركيز بلش إلى طريق غرناطة. فتوجه مباشرةً إلى الحمراء، وأعطى الرسائل إلى ماركيز مونديخار، وأخبره كيف أن ابن أمية قد بعثه فقط من أجل تسليمها، وأنه منحه حريته فى مقابل الاضطلاع بذلك الأمر، إلا أنه لا يدرى شيئًا عن فحواها. فتوجه الماركيز إلى السيد خوان دى أوستريا -ومعه الفتى- واجتمع أعضاء المجلس، فأراد بعضهم أن يدخل الرسول لنقل الرسالة بذاته. بيد أن الأب بيربيسكا دى مونتانيونيس قال إن السماح بمقابلة سفير مارق وخائن، يحمل السلاح بين يديه، هو أمر لا يتماشى مع مكانة السيد خوان دى أوستريا، وإنه عليهم تكليف أحد الموجودين هناك برؤية الرسائل وفحص الغلام، على أن ينقل فحواها لاحقًا فى أثناء انعقاد المجلس. فيما بعد عُهِد بالأمر إلى الأب مونتانيونيس ذاته، ففضّ الرسائل، ووجد أن محتوى الرسالة الموجهة إلى السيد خوان دى أوستريا هى أن ابن أمية قد تنامى إلى علمه التعذيب الذى تعرض له كل من السيد أنطونيو دى بالور، وأخيه السيد فرانثيسكو. وأن كليهما لا علاقة له بما يبدر منه هو، وأن الداعى وراء نشوب تلك الثورة لم يكن سوى الإهانات التى حدثت على أيدى رجال الشرطة. وهو يرجو السيد خوان بشدة أن يأمر بإحسان معاملتهما، وإلا فإنه من ناحية أخرى سيقدم على قتل كل من فى حوزته من المسيحيين. وإذا ما أراد فداءهم أو مبادلتهم بآخرين، فإنه سيقايضهم بثمانين أسيراً. وإذا ما استوجب الأمر تقديم رجال من الموجودين فى بلاد المغرب، فإنه سيأمر بجلبهم من أجل اتمام الصفقة، حتى لو كانوا يخضعون لنطاق سلطة الباب العالى.

كان هذا هو ما نصت عليه الرسالة الخاصة بالسيد خوان دى أوستريا. أما تلك الموجهة إلى السيد لويس دى كوردوبا، فلم يضمّنها سوى توصيته إياه أن يبحث ذلك الأمر مع السيد خوان دى أوستريا. عندما نقل الأب إلى المجلس ما جاء فى سياق الرسالتين، اتفق الحاضرون على عدم الرد عليه؛ على أن يتولى السيد أنطونيو دى بالور ذاته الكتابة إليه، ليؤكد له أنهما يلقيان معاملةً حسنةً، وإنه لم يتم تعذيبهما؛ وأن يخبره بوجهة نظره فى ذاك الصدد، فينصحه -بوصفه أباه- أن يرجع عن طريق الفجور الذى يسلكه؛ فما كان من الأب إلا أن قام بذلك. وفى غضون أيام قليلة، عاد ابن أمية إلى كتابة رسالة أخرى، رداً على تلك التى بعثها إليه أبوه -عن طريق غيخار-، ووجهها إلى القائد شُعيبى Xoaybi -الذى كان يتولى حماية ذلك المعقل- وأرفق بها خطاباً آخر إليه، كان نصه كما يلى: "بعد حمد الله والثناء عليه، من القائد الأعلى المغوار ... مولاى محمد بن أمية -نصره الله- سلام من الله ورحمة وبركة على صديقه المقرب قائد غيخار الشعيبى. إن ما أرجوه منك يا أخى هو أن تبادر بإرسال ذاك الخطاب -الذى سيصلكم مكتوباً باللغة القشتالية- إلى غرناطة، والزموا الحذر، ولا تعمدوا إلى إثارة أى قرية حتى يبلغكم الرد عليها؛ وفى أعقاب ذلك سوف آمركم أنا بما يتعين عليكم القيام به. وأستحلفكم بالله أن تتحروا الكتمان؛ وسوف آتى قريباً لرؤيتكم، وسأمدكم بكل ما يرضيكم. سلام الله وبركاته عليكم".

إلى هنا تنتهى الرسالة الموجهة إلى القائد الشعيبى، التى كنا قد عثرنا[٢٥] عليها فى الأصل بمسكنه، عندما تمكن السيد خوان دى أوستريا لاحقًا من الظفر ببلدة غيخار. وفيما يبدو، فإن الخائن لم يبعث بالرسالة الأخرى إلى غرناطة؛ ولابد أن يكون قد فضّها، ورأى فحواها، فاحتفظ بها من أجل أن يطعن عليه بالكذب. وهكذا يتضح أن المسلمين -بوصفهم أناسًا ينزعون إلى الشك- قد حنقوا على ابن أمية عندما أدركوا

(٢٥) الواقع أن مارمول كان مسئولاً عن حسابات الجيش، لكنه ينسب إلى نفسه أعمالاً لا تتعلق بوظيفته أثناء الحرب. (المراجع)

أنه يسعى إلى الإضرار بهم. وقد أقنعهم بذلك بعض الغاضبين الذين كانوا يكرهونه نظراً للأفعال الوحشية التى اقترفها فى حق الرجال الأكثر بروزاً فى أمتهم؛ فبدءوا يدبرون لقتله فى الخفاء، وهو ما قاموا به فى النهاية -كما سنروى لكم فى موضع لاحق.

الفصل الثانى والثلاثون

يتناول الكيفية التى حشد بها ابن أمية قواته فى أندرش للإغارة على ألمرية، وهجوم السيد غارثيا دى بيّارّويل على غيثيخا، وإفساد المخطط الذى ينتويه.

كنا قد ذكرنا فى الفصل السادس والثلاثين من الكتاب الخامس، كيف أن السيد غارثيا دى بيّارّويل كان قد أمر بشنق حاجب تابيرناس فرانثيسكو لوبيث، حينما عاد لتولى قيادة مقاتلى ألمرية. لأنه خشى أن يرسل ماركيز بلش فى طلبه، استجابةً لرجاء نفر من أقاربه الموريسكيين، ممن استسلموا، وساهموا فى إخضاع موريسكى آخر -لا يقل عنه إقدامًا- يدعى ألونسو لوبيث Alonso López، وابن له يدعى بدرو لوبيث Pedro López. وكانا قد انضما فى تلك الأيام إلى معسكرنا، ثم هربا فيما بعد إلى الجبل؛ فحشدا عددًا من المسلمين، جالا بهم الأراضى، وألحقا بالمسيحيين أضرارًا بالغة، حيث أسرا وقتلا أناسًا كثيرين. كما قاما بتعزيز التحصينات فى قلعة تابيرناس، وحافظوا عليها، إلى أن احتل السيد خوان دى أوستريايس حصون نهر المنصورة، كما سيرد فى موضع لاحق. كان الموريسكيان يلحان فى الطلب على ابن أمية لكى يغير على ألمرية، وقد سهلا له تلك المهمة عندما زعما أنه لا يوجد فى المدينة محاربون يكفون للدفاع عنها، وخاصةً فى ظل وجود عدد غفير من الموريسكيين داخل أسوارها؛ وكان لدى الرجلين جواسيس بين الأهالى.

لم يخطئ الموريسكيان فيما قالاه، لأن ماركيز بلش كان قد طلب من السيد غارثيا دى بيّا رّويل -خلال شهر مارس الفائت- كتيبة الفرسان خاصته من أجل الاضطلاع بإحدى المهمات. أرسل إليه السيد غارثيا خوان دى لاس إيراس -حامل راية قواته- برفقة ثلاثين سيّافًا منتقين، إلى جانب سرية المشاة التى تتبع

القائد بيرناردينو دى كيسادا **Bernardino de Quesada**. فلم يعد إليه الرجال لاحقًا، وكان من تبقى معه من الجنود قليلى العدد؛ كما كانت المدينة شبه محاصرة، وظل الأعداء يضيقون الخناق على المدينة، حتى أن المسيحيين ما عادوا يجرؤون على الخروج من الأسوار؛ خاصةً بعد أن ورد إليهم تنبيه حول سعى ابن أمية لإخراجهم من إحدى الجهات، وإحاطتهم بالأسوار؛ ثم الهجوم على المدينة من جهة أخرى، وقطع الطريق عليهم خارج المدينة. حتى أنه حاول تنفيذ تلك الخطة مرتين، فبعث ما يربو على ألف مسلم ليلاً لاحتلال الحقول؛ فما كان من الجنود إلا أن اصطحبوا معهم الموريسكيين المسالمين القاطنين بتلك الأراضى، وقتلوا من لم يشأ أن يذهب معهم.

في النهاية، قام ابن أمية بحشد أعداد غفيرة من الرجال فى أندرش، بعد أن عقد العزم على فرض الحصار على ألمرية، واحتلال ذلك الميناء -الذى يمثل أهمية بالغة لاستقبال السفن القادمة من إفريقيا. حينما تم تحذير السيد غارثيا دى بيًا رّويل إلى ذلك الأمر من قبل جواسيسه -على الرغم من أنهم لم يكونوا واثقين مما ينتويه ابن أمية، حيث أخبره البعض أن الحشود كانت تستعد للهجوم على ألمرية، بينما قال آخرون إن الهجوم سيكون على أدرا- أراد أن يدرك المخطط الذى يسعى ابن أمية إلى تحقيقه، أو الحيلولة دون تنفيذه إن أمكن. فغادر ألمرية فى الثالث والعشرين من شهر يوليو، يصاحبه مائتا جندى من حملة البنادق وثلاثون فارسًا؛ وسار فى ذلك اليوم حتى بلغ إينوكس -التى تقع إلى الشرق من ألمرية- دون أن يفصح عما ينتويه، لكى لا يأسى موريسكيو المدينة للأمر، ويحذروا أقرباءهم إلى ما يجرى؛ وحينما حل الظلام أمر بإيقاف المسيرة. حشد السيد غارثيا الجنود، وأخبرهم بالغرض الذى أخرجهم من أجله من المدينة؛ وكيف أنهم متجهون للإغارة على غيثيخا -التى يدرك وجود محاربين مسلمين بها- وأنه يرجو من الله أن يبلوا بلاءً حسنًا.

كانت بلدة غيثيخا تبعد أربعة فراسخ عن أندرش -التى جمع بها ابن أمية رجاله-، وكان هذا هو السبب الذى أراد من أجله بعض من رافقوا السيد غارثيا دى بيًا رّويل إرجاء الحملة إلى مناسبة أفضل، حينما يضحى معسكر العدو على مسافة أبعد؛

بيد أنه أقنعهم على نحو حملهم على استكمال الطريق، فعادوا ليسلكوا الناحية الشمالية، وقد واصلوا مسيرتهم طوال تلك الليلة بمشقة بالغة، لأنه بالإضافة إلى وعورة التضاريس وانحدارها الشديد، فقد كان الظلام حالكًا. مع بزوغ الفجر، توجه رجالنا للهجوم على البلدة. مكث السيد غارثيا دى بيّا رّويل فى المنطقة الخارجية مع مائة من حملة البنادق وخمسة عشر فارسًا فى صفوف منتظمة، بينما انقض شقيقه -السيد كريستوبال دى بينابيديس- على الموضع برفقة من تبقى من الرجال؛ فقتل العديد من المسلمين، وخرج إلى الجهة الأخرى مع نفر من الجنود، للحاق بمن يلوذون بالفرار صعوداً إلى الجبل.

فى تلك الآونة، أمر السيد غارثيا دى بيّا رَويل بإطلاق إشارة حشد القوات، لأن الكثير من الرجال كانوا قد انفصلوا عن الركب بعد أن أغرتهم مطاردة الأعداء؛ وهو كان يدرك أنه مع وجود ابن أمية على مسافة قريبة للغاية من البلدة، لن يتخلف عن تلبية نداء الإشارات الدخانية التى يرسلها المسلمون من الجبال. فى أعقاب تجميع رجالنا، عاد القائد أدراجه ليتوجه صوب المرية مع مائة وثلاثين أسيرة، والعديد من المتاع المحمل بالثياب. لم تتأخر النجدة التى بعث بها ابن أمية كثيراً فى الوصول، حيث تمكن المسلمون الأخف حركة من اللحاق بمؤخرة الجيش عند المنخفض الذى يطلقون عليه رامون Ramón - الذى يقع على بعد فرسخين ونصف الفرسخ من المرية. كانت مؤخرة الجيش تضم كلاً من: السيد غارثيا، والسيد كريستوبال دى بينابيديس، وفرسانا وجنوداً آخرين من ذوى الصيت، فنصبوا كميناً خلف أحد التلال، فى انتظار اقتراب الأعداء حتى ينقضوا عليهم. بيد أن المسلمين عدّلوا مسارهم، وسلكوا أعلى ربوة كائنة على الجهة اليسرى، وشرعوا فى إطلاق النيران على رجالنا من هناك. كان يتقدمهم جميعًا أحد المسلمين يتولى تحفيز الآخرين، وإطلاق صيحات مدوية مناديًا بأن يهجموا عليهم دون خوف؛ فأرداه واحد من الجنود صريعًا برصاص بندقيته. عقب وفاة ذلك الجندى خارت قوى الباقين جميعًا، وانصرفوا للمكوث فى تلك الروابى. لمّا لم يعد هناك من يلاحق المسيحيين، واصلوا مسيرتهم وهم محملين بكل الغنائم، ودلفوا إلى المرية قبل انتصاف النهار بساعة.

تركت تلك الحملة وقعًا شديدًا، لأن ابن أمية عدل عن رأيه، بعد أن أدرك أن موريسكيي المرية قد كذبوه القول؛ وأن المدينة بها رجال أكثر واحتياطات أفضل مما أخبروه به. ومنذ ذلك الحين بات حانقًا عليهم، حتى أنه أمر بقتل كل من وقع تحت يديه، بمجرد أن وردت إليه أنباء حول رؤيتهم يتحدثون إلى السيد غارثيا دى بيّا روّيل، ظنًا منه أنهم جواسيس؛ وخلال برهة وجيزة قتل ثلاثة وعشرون موريسكيًا من المدينة ونواحيها، قضى عليهم فى وحشية. حيث أمر بدفن بعضهم حتى الخاصرة، وقذفهم بالقوس؛ بينما قطّع آخرون إلى أشلاء وهم على قيد الحياة، كما أمر بنشر أحد الرجال إلى نصفين بالمنشار. منذ ذلك الحين باتوا يشعرون بخوف شديد، حتى إن الكثيرين تخلوا عن ذلك الدور؛ ولولا الربح الوفير الذى تدره تلك الوظيفة، ما كان ابن أمية ليعثر على من يود أن يصبح جاسوسًا.

الفصل الثالث والثلاثون

يتناول الحملة التى شنها السيد أنطونيو دى لونا على وادى ليكرين، والتى توفى خلالها القائد ثيسبيديس، وبعض الاشتباكات التى دارت فى خلال تلك الأيام مع الأعداء فى منطقة شلوبانية.

كان أهالى بينيوس ديل بايى Pinillos del Valle قد عادوا إلى ديارهم فى تلك الآونة. ولمّا كان بينهم نفر من المحاربين المسلمين الذين يحدثون بعض الأضرار، فقد أصدر السيد خوان دى أوستريا أمراً إلى السيد أنطونيو دى لونا، لكى يتوجه -برفقة الكتائب التى تعسكر فى غوطة غرناطة- لشن غارة صباحية على ذلك الموقع؛ وأن يصطحب معه فى الطريق بعض الرجال الموجودين فى معقل تابلاتى. قام السيد أنطونيو بجمع ثلاثة آلاف ومائتى راجل، ومائة وعشرين فارسًا، ووصل بهما إلى تابلاتى عشية عيد القديس سانتياغو. عندما لم يجد بها القائد ثيسبيديس Céspedes- حاكم المعقل وقائد قواته، الذى كان قد ذهب إلى إحدى القرى الخاضعة هناك على مقربة من البلدة- أصدر أمراً إلى القائد خوان دياث دى أوريا Juan Díaz de Orea، لكى يبلغه حال وصوله أن يرسل -قبيل بزوغ الفجر بساعتين- كتيبتى مشاة من الثلاثة الموجودين لديه؛ على أن يسلكوا طريق بينيوس الذى يقع على الجهة اليمنى، ويتوجهوا للإغارة على المكان عند الفجر؛ لأنه سيقوم بالأمر ذاته مع كل من برفقته من الرجال.

عندما أدرك السيد أنطونيو أن المسلمين الذين شهدوا مقدمه قد أخذوا حذرهم، وسيقومون بتكذيب الأخبار التى ينقلها الجواسيس، قرر أن يعود من حيث أتى،

حتى يعتقدوا أنها دورية حراسة كانت تجلب المؤن، وقد عادت إلى غرناطة. فقضت القوات تلك الليلة فى مكمن ببلدة بيثنار، حتى رأى أنه لم يبق من الليل إلا الوقت اللازم لقطع الطريق والهجوم على بينيوس فى الصباح. ما كاد السيد أنطونيو دى لونا يبرح تابلاتى، حتى وصل إليها القائد ثيسبيديس؛ وحينما رأى ما أمر به السيد أنطونيو، أراد أن يذهب بذاته مع الرجال، على الرغم من أن نفراً من أصدقائه قد نصحوه بعدم القيام بتلك الحملة، لأنه لم ترد إليه قرارات بشأنها من السيد خوان دى أوستريا، كما أنه لم يكن على وفاق مع السيد أنطونيو دى لونا.

فى صباح اليوم التالى -وكان يوم عيد القديس سانتياغو، الموافق الخامس والعشرين من يوليو- أغارت قواتنا كلها على موضع بينيوس مع بزوغ الفجر. بيد أنهم لم يفلحوا فى تحقيق مأربهم، لأن المسلمين كانوا قد تنبهوا إلى الأمر، وارتقوا الجبال مع نسائهم وبنيهم. عندما أدرك السيد أنطونيو دى لونا أنه قد جانبه الصواب، عاد ليتجه صوب بلدتى لاس ألبونيويلاس وسالاريس. فلمّا بلغ ريستابال -حيث كانت سائر تلك البقاع متجاورة- أمر القائد ثيسبيديس أن يسلك الطريق العلوى الذى يفضى صعوداً إلى لاس ألبونيويلاس، برفقة مائتين من حملة البنادق، على أن يصحبه فرانثيسكو دى أرويو Francisco de Arroyo مع جنود فرقة بدرو دى بيلتشيس؛ بينما عبر هو مع جميع الرجال الباقين إلى بلدة سالاريس، من أجل محاصرة هذين الموضعين فى آن واحد. إبان وصول القائد ثيسبيديس إلى أعلى الجبل الكائن ما بين ريستابال ولاس ألبانيويلاس، شاهد فوجًا من المسلمين على ربوة دائرية، تقع على الجانب الأيسر فى وسط منطقة منبسطة، وقد أودعوا خلفهم النساء، والأمتعة، والماشية، فى وادى الجبل المشرف على ريستابال. فهجر الطريق الذى كان يسلكه، واتجه نحوهم، فشرع الرماة فى تبادل إطلاق النيران؛ ومع أول دفعة، أُطلِقَت على صدره رصاصة من أحد البنادق، فاخترقت مقدمة الدرع المتين الذى كان يرتديه، وخرّ صريعا على الأرض. بادر الكثير من المسلمين -الذين كانوا يجوبون تلك الجبال ومبعثرين فى أرجائها- بالهجوم على المسيحيين الذين كانوا يصحبون القائد ثيسبيديس،

حتى اضطروهم إلى التراجع على نسق غير منتظم، مخلّفين وراءهم بعض الجنود قتلى؛ وكان من بين الموتى رجل يدعى ناربـاييث دى خيمينا Narváez de Jimena، الذى قاتل فى ذاك اليوم كإسبانى أصيل إلى جوار قائده من أجل استعادة جثته.

لم يتمكن السيد أنطونيو دى لونا من نجدتهم، لأنه كان موجوداً فى الجهة المقابلة من أحد المنخفضات الكائنة بين الربوتين؛ كما أن الفرسان، الذين كانوا يصحبون ولده السيد ألبارو دى لونا، قد تراجعوا لاحقًا بعد أن منيوا بالهزيمة. قال البعض إن السيد أنطونيو دى لونا لم يشأ أن يغيث القائد ثيسبيديس، لكنه لا يجدر بنا أن نظن صدور مثل ذلك التصرف القاسى من قبل فارس مسيحى؛ أو إنه كان سيصل فى الوقت المناسب لإنقاذ حياته -إذا ما كان قد هب لنجدته-؛ لأن المسلمين كانوا قد صرعوه عقب بداية الاشتباك. بل إننا فطنا إلى أن ما تسبب فى موته كان حماسه الزائد، ورغبته فى اقتحام المواضع التى يوجد بها المسلمون على طول الوادى، وذلك انطلاقًا من إقدامه ورغبته فى الاضطلاع بدور مهم. فى نهاية الأمر، لم يرغب السيد أنطونيو دى لونا أن يقطع المنخفض الذى كان يفصله عن الربوة التى يدور بها الاشتباك، لأنه فى أعقاب نهبه لبلدة سالاريس، جمع القادة للتشاور وإقرار النهج الذى سيسلكونه؛ وبعد أن دار العديد من النقاشات فى هذا الصدد، وفى ضوء مشاهدته لتزايد أعداد المسلمين، أخذ فى التراجع إلى بادول من طريق يختلف عن ذلك الذى كان قد قطعه من قبل؛ وخلّف وراءه القائد لاثارو دى إيريديا Lázaro de Heredia -وكان فتى مغواراً- ليحتل مؤخرة الجيش مع كتيبته، ويتولى تجميع الرجال الذين كانوا يأتوه شبه منهزمين.

تابع المسلمون ملاحقة الجيش على امتداد التضاريس الوعرة، لكنهم لم يجسروا على المضى قدمًا خوفًا من سلاح الفرسان؛ فرجعوا إلى سالاريس، وقتلوا نفراً من الجنود كانوا قد مكثوا بالبلدة لنهب منازلها. أما حامل راية ثيسبيديس، فقد احتمى بالكنيسة مع ثلاثة من الجنود، وظل يدافع عن نفسه هنالك على مدار ثلاثة أيام،

حتى أضرم المسلمون فيهم النيران، وأحرقوهم بالداخل. ولم يحمل السيّافون معهم سوى بعض الماشية التى تصادف عثورهم عليها ضالة فى الطريق، وكمية من الأمتعة والثياب كانوا قد أخرجوها من البلدة، وست أسيرات.

رفعت الحادثة التى وقعت فى ذلك اليوم من همة الثوار. وفى الأسبوع الذى تلاها، فى أثناء مرافقة حامل الراية موريث **Moriz** كتائب مشاة مدينة تروخيو **Trujillo** -التى يترأسها القائد خوان دى تشابيس دى أوريانا **Juan Chaves de Orellana**- لاصطحاب إحدى دوريات الحراسة المتوجهة من بادول إلى تابلاتى، بعث الماكوش **el Macox** ثلاثمائة جندى مسلحين بالبنادق لانتظارها عند منخفض تالارا **Talará**. فخرجوا لملاقاتها من أحد الكمائن التى كانوا قد نصبوها، وألحقوا بها الهزيمة؛ كما قتلوا حامل الراية، بالإضافة إلى كل من كان بها من الجنود. لكن أعقب تلك الواقعة إرسال السيد خوان دى أوستريا لدورية أخرى من باب توخى الحذر؛ وقد رافقها كل من القائد إنييغو دى أرويو سانتيستيبان **Íñigo de Arroyo Santisteban**، وبدرو دى بيلتشيس -الذى كان يُعرف باسم "ذى الرجل الخشبية"- فتركا معبر تالارا، الذى كان من المعلوم وجود المسلمين به، وسلكا ممرًا آخر يعلوه يُطلَق عليه نوغاليس **Nogales**. فأفلتوا منهم على نحو أتاح لهم الوصول إلى الجهة الأخرى من المنخفض مع طلوع النهار، ليبلغوا تابلاتى آمنين؛ فأودعوا بها نصف كمية المؤونة التى معهم، بينما حمل النصف الآخر القائد غاسبار دى ألاركون **Gaspar de Alarcón** -الذى حضر من أورخيبا للقيام بذلك الأمر. فى أعقاب ذلك بفترة وجيزة، صدرت الأوامر بإخراج المعقل من تابلاتى، ونقله إلى الساقية، وكان موضعًا أكثر موائمةً لتأمين الطريق ودوريات الحراسة.

فى بعض الأحيان كان مسلمو وادى ليكرين يجمعون صفوفهم مع المسلمين فى لاس غواخاراس، وكان خيرونثيو يصحبهم ليجوبوا الأراضى الواقعة باتجاه مطريل وشلوبانية؛ فخرج الفرسان لملاقاتهم، وعلى الرغم من قلة عددهم، فقد ألحقوا بهم خسائر فادحة. كان القائد المسلم قد حشد آنذاك ستمائة من الرماة، وذهب بهم

لينصب فخًا وراء الربوة التى تُدعَى أتشو Hacho. وفى أثناء سير بعض المسيحيين الضالين فى الحقول، خرج عليهم، فقتل واحداً وجرح آخر، بينما فر الباقون وعادوا إلى البلدة. وعندما قرعت دوريات الحراسة ناقوس الخطر، أمر السيد دييغو راميريث دى آرو بإطلاق دانة مدفع لتحذير من بمطريل التى تقع على مسافة فرسخ واحد من هناك، وكلها أراضى منبسطة.

خرج السيد لويس دى بالدييبا للبحث عن الأعداء فى ستين فارسًا ، وكان هؤلاء يتبعون كتيبته وكتيبة أرخونا Arjona العامرة بالفرسان -الذين كانوا موجودين معه بغرض حماية تلك البلدة. عندما استشعر الأعداء إطلاق نيران المدفعية، هربوا إلى الجبال؛ فلحق بهم السيد لويس عند تلال تيرماى Termay- التى تقع إلى الغرب من شلوبانية. وفى أثناء احتدام القتال، خرج إليه السيد دييغو راميريث مع سبعة فرسان فحسب كانوا معه؛ فانقض كلاهما على الأعداء فى حماسة، وألحقا بهم الهزيمة، وأجبراهم على الفرار. تقدم القائدان حتى أضحيا بجوار إترابو، فأضرما النيران فى المحاصيل، وأحرقوا تلك التلال بأسرها؛ ثم عادا إلى معقليهما، نظراً لعدم وجود جنود مشاة معهما لكى يمكنوهما من شن هجوم على البلدة. حدث فى ذلك اليوم أن اشتبك واحد من مشاة المسلمين مع أحد السيّافين، فأوقعه من على صهوة فرسه، واستولى على الحصان، ثم ركبه حتى ينطلق به. بيد أن سيافًا آخر من مطريل -يدعى دييغو بيريث تريبنيو Diego Pérez Treviño- اندفع نحوه بجواده، بعد أن رآه يغادر بجواد المسيحى. فلحق به، ووضع يده على الطاقم الذى يزين رأس الحصان، فتشبث به الجندى المسلم، حتى إن كلاهما وقع على الأرض. وقد تصارعا لفترة من الزمن، حتى قتل تريبينيو المسلم فى النهاية؛ وهكذا استرد الفرس، وأعطاه إلى صاحبه من جديد.